مدونة

النقد النصي

old-criticism.blogspot.com

للعهد القديم

نحن مجموعة من طلبة العلم المُهتمين بما يسمى بعلم
" النقد النصي للعهد القديم "
هدفنا نشر هذا العلم النفيس والتعريف به
فمازال نقد نصوص العهد القديم علماً مهضوم الحق في ظل
إهتمام متزايد بدراسة " علم النقد النصي للعهد الجديد "
ونسعى - ونسأل الله أن يمكننا من ذلك - إلى توسيع قاعدته
البحثية وتعريبه ، واضعين ما يتيسر من أدوات تساعد الباحث ،
وخلاصة إنتاجنا وكتاباتنا والإخوة من أبحاث ومقالات على
الشبكة .
ونسأل الله العلي الكريم أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه
الكريم دون أي غرض للشهرة و الرياء .

Old Criticism blogspot

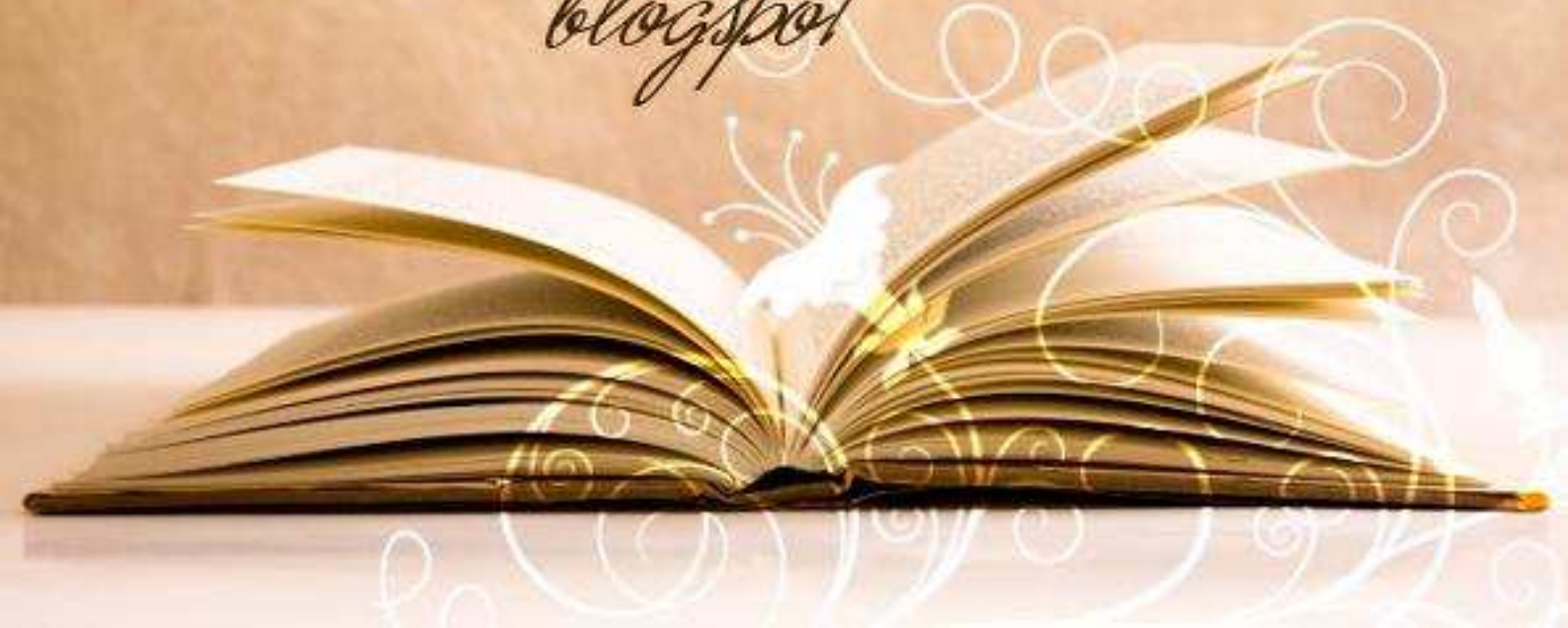

مركز الدراسات الشرقية
جامعة القاهرة

التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية

تأليف

نفتالى فيدر

ترجمة

د. محمد سالم الجرح

سلسلة فضل الإسلام على اليهود واليهودية

العدد (١)

١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م

الخميس ١٣/٦/٢٠١٣
برفقة محمد محمود الغرباوي
أحمد سميح

التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية

تأليف

نفتالي فيدر

ترجمة

د. محمد سالم الجرح

سلسلة فضل الإسلام على اليهود واليهودية

يصدرها مركز الدراسات الشرقية - جامعة القاهرة

تحت إشرف أ.د/ محمد خليفة حسن

* الآراء الواردة تعبر عن وجهة نظر كتابها ولاتعبر بالضرورة عن رأى المركز

تصدر هذه السلسلة تحت رعاية

أ.د نجيب الهلالى جوهر

رئيس جامعة القاهرة

- ورئيس مجلس إدارة المركز

و

أ.د أمير إمام ناصف

نائب رئيس الجامعة

ونائب رئيس مجلس إدارة المركز

بسم الله الرحمن الرحيم

القارئ الكريم :

. يسر مركز الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة أن يقدم للقارئ الكريم هذا الكتاب الجديد في سلسلة جديدة من إصدارات مركز الدراسات الشرقية هي سلسلة : **فضل الإسلام على اليهود واليهودية**. وقبل أن نعرف بالكتاب ومؤلفه ومترجمه، نود أن نعرف بهدف هذه السلسلة الجديدة من إصدارات مركز الدراسات الشرقية والتي تبدأ بهذا الكتاب الذي ستتلوه كتب أخرى من أهمها : " **اليهود في ظل الحضارة الإسلامية** " للأستاذ الدكتور عطية القوصي، **والأثر العربى والإسلامى فى كناب الهداية الى فرائض القلوب لأبن فقوده** للأستاذ الدكتور عبدالرازق قنديل، وكتاب " **علاقة الإسلام باليهودية : رؤية إسلامية في مصادر التوراة الحالية** " للأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن.

إن صدور هذه السلسلة الجديدة يتواكب مع المرحلة الجديدة من تاريخ الصراع في الشرق الأوسط. وهي مرحلة بدأت بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣م المجيدة وانتصار العرب المجيد في هذه الحرب وبداية دخول المنطقة العربية في مفاوضات السلام والتي نتج عنها اتفاقية سلام مع مصر وأخرى مع الأردن وستنتهي قريبًا باتفاقيات سلام مع بقية الأطراف السورية واللبنانية والفلسطينية رغم العقبات التي تمر بها العملية السلمية منذ نهاية فترة إيهود باراك وبداية فترة أرييل شارون.

وهدفنا من هذه السلسلة الجديدة توعية الإسرائيليين والمجتمع الإسرائيلي واليهودي عمومًا بفضل العرب على اليهود عبر العصور، وبفضل الإسلام والحضارة الإسلامية على اليهود منذ ظهور الإسلام وحتى الآن. وهذه التوعية لم يكن من الممكن أن تتم خلال فترة الصراع العسكري، وحدة العنف والعدوان

الإسرائيلي المتكرر على الأرض العربية وفي مناخ العنصرية الذي تعيشه إسرائيل منذ ظهورها في المنطقة.

ونعتقد أن مناخ السلام سيعطي للإسرائيليين ولليهود خارج إسرائيل الفرصة للتعمق في طبيعة العلاقات العربية اليهودية. ومع سعي إسرائيل إلى تطبيع علاقاتها بشعوب المنطقة نشعر أنها في حاجة إلى تثقيف نفسها في ماضي العلاقات العربية اليهودية، وبطبيعة هذه العلاقات في ظل تسامح الدولة العربية الإسلامية، وكيف اندمج اليهود في المجتمع المسلم وتأثروا بالحضارة الإسلامية في ظل حكم عربي إسلامي احترم أهل الكتاب واعتبرهم أهل ذمة مع المسلمين ووفر لهم الحماية الشرعية والأمن الديني والاجتماعي والرفاهية الاقتصادية والمكانة الإنسانية اللائقة.

إن هدف هذه السلسلة أن نثقف إسرائيل ومجتمعها بثقافة السلام، وأن ننمي لدى المجتمع الإسرائيلي الوعي الحقيقي بالسلام وضرورة نبذ العنف والعدوان وهجر العنصرية ومفاهيم الإبادة ونذكر هذا المجتمع بفضل العرب وحضارتهم، وبفضل الإسلام وحضارته على اليهود عبر التاريخ وذلك من خلال مجموعة أعمال مترجمة من العبرية وبعضها الأخر مؤلف خصيصًا لهذه الغاية.

ويمثل العمل الذي نقدمه الآن مترجمًا من اللغة العبرية إحدى العلامات المضيئة على طريق بيان فضل الإسلام على اليهودية وفضل المسلمين على اليهود وذلك باعتراف مؤلف الكتاب وهو الباحث اليهودي نفتالي فيدر الذي ألف هذا الكتاب بعنوان " **التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية** " ويعود الفضل في ترجمة هذا الكتاب إلى المرحوم الدكتور **محمد سالم الجرح** الأستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة والذي شعرنا من خلال ترجمته لهذا الكتاب أنه يسعى إلى نفس الهدف الذي نسعى إليه وهو بيان فضل الإسلام على اليهودية. وهو إحدى وسائلنا الثقافية لتنمية وعي المجتمع اليهودي بثقافته ومنابعها والمؤثرات الإسلامية فيها. ولا نقول هذا من باب الادعاء. فها هو المؤلف اليهودي للكتاب يقول : " **إن الديانة اليهودية تأثرت تأثرًا عظيمًا بالبيئة الإسلامية** .فقد أدت التيارات الروحية التي

غمرت هذه البيئة طوال مئات من السنين إلى ثورة في الحياة الروحية لليهود المقيمين في الأصقاع العربية ... وقد عظم هذا التأثير أولا وقبل كل شئ في ميدان الفكر الديني والنظر الفلسفي ... الخ ".

إن المرحلة القادمة هي مرحلة صراع ثقافي بين إسرائيل والعرب. وفي إطار هذا الصراع علينا أن نذكر إسرائيل واليهود بهذا الفضل العربي والإسلامي عليهم ونعتقد أن هذا الفضل سيستمر في المرحلة القادمة إذا استوعبت إسرائيل دروس السلام، وتغلغل السلام إلى روح المجتمع الإسرائيلي، وبدأ هذا المجتمع يعيش بعقله لا بسلاحه.

ونرجو أن يستفيد من هذا العمل المجتمع الإسرائيلي بكامله بالإضافة إلى الفائدة العلمية التي ستتحقق لجمهور من الباحثين المتخصصين في مقارنة الأديان وفي علاقة اليهودية بالإسلام، وفي الدراسات الإسلامية والدراسات اليهودية، وفي العلاقات العربية اليهودية عبر العصور.

وقيام مركز الدارسات الشرقية بإعداد طبعة جديدة من ترجمة المرحوم الأستاذ الدكتور محمد سالم الجرح لهذا الكتاب إنما الهدف منه أيضًا إحياء ذكرى هذا العالم الجليل عند محبيه وتلاميذه في مجال الدراسات السامية. فقد كان على وعي تام بأهمية الدراسات السامية المقارنة في خدمة الثقافة العربية، وبأهمية إبراز فضل الثقافة العربية الإسلامية على اليهودية.

وبإعادة طبع هذا الكتاب نتمنى أن نكون قد حققنا كل هذه الأهداف المنشودة وندعو لمترجمه الفاضل بالرحمة والمغفرة، وأن يجعل الله هذا العمل في ميزان حسناته.

والله ولي التوفيق.

أ.د. محمد خليفة حسن

مدير مركز الدراسات الشرقية

جامعة القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

ليست الدراسات السامية جديدة على الجامعات العربية عامة أو جامعات مصر بصفة خاصة، فلقد كانت ولا تزال مادة دراسة وبحث منذ عشرات السنوات يشتغل بها مالا يقل عن سبعة أقسام جامعية في كلياتنا المختلفة، ومع ذلك فإن حظ المكتبة العربية من الإنتاج العلمي في هذه الدراسات لا يزال قليلاً ضئيلاً..!

ولعل هذا هو سر انصراف الطلاب عن الإقبال على هذه الدراسة، وزهد القارئ العادي في القليل الذي يكتب فيها، لأنه لم يتح لهؤلاء جميعًا أن يدركوا أهمية هذه الدراسة لنا، وارتباطها الشديد بجميع وجوه ثقافتنا وآدابنا، على الرغم من أن الحضارات السامية كانت دائمًا الأرض الخصبة التي ازدهرت حضارتنا العربية الإسلامية في تربتها، وترعرعت بين جنباتها. ولن نستطيع فهم تاريخنا ودِيننا، ولغتنا وأدبنا، وطباع مجتمعنا فهما علميًا سليمًا إلا إذا وضعنا ذلك كله في مكانه الصحيح من الإطار السامي العام.

وإنه لمن العجيب أن يكون اهتمامنا بتاريخ أوربا، وآدابها، والترجمة منها، والمقارنة معها أكثر بعشرات الأضعاف من اهتمامنا بما أنتجته بيئتنا وجنسنا من ذلك كله، مع أن الحضارة الأوربية غريبة عن حضارتنا، وليس وفودها إلينا إلا وفود الطارئ الدخيل، ولا تفاعلها مع حضارتنا إلا تفاعل العنصر الغريب المضاد. بيد أن الحضارة السامية تمثل الجذور العتيقة التي تعتبر حضارتنا الحالية بكل وجوهها امتدادها الطبيعي.

ولذلك فإنه أولى لنا قبل أن نخضع لغتنا العربية لهياكل البحث اللغوي في اللغات الأوربية أو نقارن أدبها مع الأدب الفرنسي أو الإنجليزي، أو نتعمق فلسفتنا

الإسلامية على ضوء الفلسفة الأوربية الحديثة، أو نفهم فنوننا الشعبية بنفس النظرة التي يحلل بها الأوربيون رصيد شعوبهم من "الفولكلور" أقول أولى لنا أن نعود بذلك كله إلى الوضع الطبيعي، فنفهم الظواهر في عربيتنا في ضوء مقارنتها بما نجده في أخواتها من اللغات السامية الأخرى، ونجلي ملامح أدبنا بمقابلته ببقية الآداب السامية الشقيقة، ونفتش عن البذور الأصيلة لفلسفتنا في النتاج الفكري من تراثنا السامي العريق، بل ونرد فنوننا الشعبية إلى بدايتها الأصيلة في البيئة السامية البدائية الأولى.

ولست أزعم أنني أستطيع أن أنهض بذلك كله، فأنا أدرى الناس بضعفي وقصر باعي، وطاقتي المحدودة، ولكني لازلت آمل أن تزدهر هذه الرسالة عندنا، وأن يسهم في نهضتنا الكثيرون من الأساتذة المتخصصين، وأن يقبل عليها جموع الطلاب والدارسين. فنحن أحق بالعناية بهذه الدراسة من سوانا لأن العرب والعربية أصل الشعوب واللغات السامية، بل إننا لنستطيع أن نسمي الشعوب السامية كلها بالشعوب العربية، واللغات السامية كذلك باللغات العربية فنحن نمثل الجذع الذي تفرعوا منه جميعًا.

وحتى يتحقق لي أمل في ازدهار هذه الدراسة، فإنني أتقدم بجهدي المتواضع فأضيف إلى المكتبة العربية سلسلة من الرسائل تضم كل ما تعينني الظروف على إخراجه من أبحاث وتراجم تغطي زاوية أو أخرى من زوايا هذا الميدان الفسيح، سواء كانت في اللغة والأدب، أو في الحضارة والتاريخ، أو في الفلسفة والدين.

وأسأل الله الكريم أن يمدني بعونه وتوفيقه، حتى تتتابع رسائل هذه السلسلة وتتلاحق، وتؤدي بعض ما أردته بها من خدمة لغتنا العربية، ودينا الإسلامي، ومناحي حضارتنا الأصيلة كلها.

والحق أنه ينبغي أن أهدي هذه الرسالة عن " التأثيرات الإسلامية في العبادة اليهودية " إلى الذكرى الخالدة لفقيدنا الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد فلولاه ما أعرت هذه الرسالة أو موضوعها أي اهتمام.

لقد أصدر الباحث اليهودي نفتالي فيدر Naphtali Wieder بحثًا باللغة العبرية بهذا العنوان في أكسفورد عام ١٩٤٧م. وخرج الكتاب يحمل على غلافه الخلفي العنوان الإنجليزي Islamic Influences on the Jewish Worship ووقعت عين الأستاذ العقاد على هذا العنوان الشيق في إحدى قوائم الكتب التي كان المغفور له لا يكف عن فحصها، فطلب الكتاب لفوره، وفوجئ عند وصوله أنه باللغة العبرية وليس فيه ما حرر بالإنجليزية غير صفحة العنوان الخلفية، فترك الكتاب جانبًا بعد أن أحس دون شك بقدر كبير من الأسف لعجزه عن أن يلم بوجهة نظر الباحث في مثل هذا الموضوع الهام.

ومضت السنون، وجاءني في نهاية صيف ١٩٦٢م أحد أصدقائي من تلامذة الأستاذ العقاد، هو الزميل الأستاذ أحمد حمدي إمام، يقترح عليّ أن أقوم للأستاذ العقاد بترجمة هذا الكتاب العبري إلى اللغة العربية، وقبلت مغتبطًا، ولكني لم أكد أبدأ العمل فيه حتى جد موضوع سفري إلى الولايات المتحدة الأمريكية للعمل محاضرًا زائرًا في الدراسات العربية والسامية بجامعاتها، ودفعني حرصي على إرضاء المرحوم الأستاذ العقاد بترجمة الكتاب من جهة، وعلى خدمة الوطن والعلم بالتأهب للرحلة إلى أمريكا من جهة أخرى أن أنتدب لمساعدتي في ترجمة الكتاب أحد طلابي النجباء وهو الأستاذ عرفة حسين مصطفى الذي كان قد تخرج من آداب عين شمس يحمل درجة الماجستير في اللغة العبرية وآدابها بجدارة وتفوق. وأنجزنا

ترجمة البحث، وأعدت الأصل والترجمة إلى الأستاذ العقاد وطرت إلى أمريكا في نوفمبر سنة ١٩٦٢م، وخلت أن صلتي بهذا البحث قد انتهت بيما إلى الأبد.

وخلال إقامتي بالولايات المتحدة، وقيامي بالتدريس في جامعة بنسلفانيا بمدينة فيلاديلفيا نمى إليّ خبر وفاة الأستاذ العقاد، ولم تكد تتخلى عني قليلاً موجة الأسى على فقدنا لهذا الأديب الكبير حتى وقع في ذهني ذكر هذا البحث وترجمته، وأحسست أنهما قد يقبعان تحت غبار النسيان بين الأكوام الهائلة من الكتب التي تضمها مكتبة الأستاذ العقاد دون خلاص أو إنقاذ، فبدأت لفوري أفتش عن نسخة أخرى من البحث العبري لأقتنيها، ولكن نسخه جميعًا كانت قد نفدت، فاستعرت النسخة الخاصة بالدكتور س. د. جوتاين الأستاذ بجامعة بنسلفانيا، وكان عليها إهداء المؤلف له، وقمت بتصويرها، ثم انتهزت فرصة وجودي بين كثيرين ممن يجيدون اللغة العبرية في جامعة بنسلفانيا، فطلبت من أحدهم أن يسجل البحث على شريط ، وبدأت مستعينًا بهم والصورة الشمسية، والشريط المسجل للبحث أعيد النظر في ترجمته وأعلق على ما يستدعى التعليق من فقراته.

وأنا الآن أقدم ثمرة هذا الجهد المتواضع في هذه الرسالة التي شاءت لها الأقدار أن تكون الأولى في سلسلة الحلقات التي أعتزم إصدارها تحت عنوان "دراسات عربية سامية". وأحب أن أؤكد أن ترتيب الحلقات في هذه السلسلة، لا يخضع لأي خطة عامة أو اعتبار خاص وإنما يتحكم فيه المبدأ العملي " ما يتم إنجازه أولاً يظهر أولاً ".

والذي يجعلني أسعى لنشر هذا البحث باللغة العربية هو طرافة موضوعه واتخاذه في عرض العلاقة بين اليهودية والإسلام اتجاهًا مضاداً لما درج عليه الباحثون من اليهود خاصة، والمستشرقين عامة، من التصدي في أبحاثهم لتأثير

اليهودية على الإسلام[1]، اعتماداً منهم على أنه ما دام ظهور اليهودية على مسرح التاريخ أقدم من ظهور الإسلام، فإنه لا مفر من أن يؤثر السابق في اللاحق. وقد فندنا نحن خطأ هذا الزعم في أول حاشية لنا على مقدمة مؤلف هذه الرسالة[2].

أما هذا البحث فإنه يتعرض للاتجاه المقابل، فيوضح كيف تأثرت مظاهر العبادة في الديانة اليهودية بالنظم الإسلامية، ومن ثم تأتي طرافة هذا البحث من الناحية العلمية من جهة، وأهميته بالنسبة لنا كمسلمين من الجهة الأخرى. وصحيح أن البحث يتناول جزئيات قد لا تعبر عن تأثير جذري للإسلام على اليهودية، ولكن الباحث – وهو يهودي – يكرر خلال بحثه أن ظهور التأثير في هذه الجزئيات لم يكن إلا عرضًا مظهريًا لتأثر قادة اليهود وزعمائهم في الدولة الإسلامية بروح الإسلام، وفلسفته، واتجاهات مبادئه إلى النظافة والنظام في المظهر، وإلى الزهد والإخلاص في النفس، بل أنه كثيرًا ما يسمى التأثير الإسلامي الذي أدخله قادة اليهودية إصلاحًا[3].

وقبل أن أختم هذا التصدير الموجز أرى لزامًا عليّ أن أعترف أن ما أقدمه الآن إنما هو ترجمة أمينة، وإن لم تكن، حرفية لبحث الأستاذ نفتالي فيدر بالعبرية،

---

(١) من أحدث ما ظهر في هذا الموضوع كتاب Judaism in Islam للباحث اليهودي Abraham J. Katsh نيويورك ١٩٥٤، ويضم في نهايته قائمة طويلة بما سبقه من أبحاث لليهود والمسيحيين في نفس الموضوع.

(٢) انظر ص٩ هامش ١ من هذه الرسالة.

(٣) يقول المؤلف في مقدمته مثلاً " إن الديانة اليهودية تأثرت تأثرًا عظيمًا بالبيئة الإسلامية فقد أدت التيارات الروحية التي غمرت هذه البيئة طوال مئات من السنين إلى ثورة في الحياة الروحية لليهود المقيمين في الأصقاع العربية ... وقد عظم هذا التأثير أولاً وقبل كل شئ في ميدان الفكر الديني، والنظر الفلسفي ... الخ ". ويكرر هذا المعنى خلال صفحات بحثه كله.

وقد وجدتني في كثير من الأحيان مضطرًا إلى التصرف، مكتفيًا من الجزئيات المتشابهة ببعض نماذجها، أو العبارات المترادفة بواحدة منها، ومستغنيًا عن إيراد العديد من المراجع العبرية التي أشار المؤلف لها، ولكني رأيت من غير المحتمل رجوع القارئ العربي إليها. ونظرًا لعدم وجود حروف عبرية في مطبعتنا. فقد اقتصدت جدًا في إيراد الكلمات العبرية، ووضعت ما اضطرت إلى إيراده منها في حروف لاتينية.

وأكرر شكري للأستاذ العقاد الذي لفت نظري إلى هذا البحث، وللزميل الأستاذ عرفة حسين مصطفى الذي ساعدني في الترجمة الأولى له، وأسأل الله دائمًا السداد والتوفيق.

محمد سالم الجرح

مقدمة

لا شك أن للديانة اليهودية تأثيرًا كبيرًا واضحًا على نشأة الدين الإسلامي وتطوره، فكثير من أسس هذا الدين ترتد إلى مصدر إسرائيلي، فضلاً عن أن كثيرًا من معتقداته وآرائه وقوانينه وشعائر عبادته وكانت قد نبتت في تربة اليهودية أولاً واتسمت بطابعها(١).

والمعروف من الجانب الآخر أن الديانة اليهودية تأثرت تأثرًا عظيمًا بالبيئة الإسلامية، فقد أدت التيارات الروحية - التي غمرت هذه البيئة طوال مئات من السنين - إلى ثورة في الحياة الروحية لليهود المقيمين في الأصقاع العربية؛ إذ أن المسائل الدينية التي قتلتها المدارس الإسلامية بحثًا عرفت طريقها إلى مدارس أحياء اليهود، وقد عظم هذا التأثير أولاً وقبل كل شئ في ميدان الفكر الديني والنظر الفلسفي حيث شعرت المراكز الثقافية اليهودية بالحاجة إلى حل المشكلات الدينية الفلسفية التي صارت موضع نقاش وبحث، بسبب ما وقع فيها من تضارب في الآراء بين الفرق الإسلامية المختلفة.

ومن الناحية الشكلية اتخذ اليهود لأنفسهم مناهج العرب العلمية في فروع الدين، والأخلاقيات، والنحو، وتفسير الكتاب المقدس. بل حتى في ميدان الشريعة :

---

(١) يرجع المؤلف نواحي الشبه بين اليهودية والإسلام إلى تأثير الديانة الأولى على الثانية، نظرًا لأن الأولى أسبق في التاريخ، وممكن مناقشته بأنه ما دام مصدر الأديان السماوية واحدًا وهو الله، ووسيلة تبليغها للبشرية واحدة وهي الوحي، والرسل، وهدفها واحد وهو بث الخير بين البشر وحتى بيئتها الجغرافية واحدة وهي الموطن السامي، فلا يكون من الغريب أن تتفق في كثير، ولا ينبغي أن يعزى كل اتفاق بينها إلى تأثير السابق في اللاحق (الجرح).

فإن كتاب Mishnah Torah[1] الذي يبهرنا ببنائه وترتيبه ليس سوى ترتيب لمواد الشريعة الضخمة وفقًا للنظام الذي وضعه علماء الفقه المسلمون[2]. وليس هذا فحسب بل إن كبار المشرعين لم يتحرجوا من أن يستخدموا في تأليفهم أفكارًا وخواطر مأخوذة من التأليف في الإسلام وفلسفته. وكثيرًا ما توغل هذا التأثير حتى في استعمال كلمات نجدها حيث لم تكن نتوقعها تمامًا ويكفي ذكر شاهد واحد هو هذه العبارة :

Ywrnw rbnw wshkhrw Kfwl mn hshmym.

" فليفتنا سيدنا وأجره مضاعف في السماء " فهذه العبارة التي اقترنت طوال مئات السنين بالأسئلة التي كانت تعرض على الجاءونيم من رؤساء الطائفة اليهودية ومن خلفهم – مصدرها هي الأخرى من الخارج[3].

كل هذا من الأمور المسلم بها، ولكن الذي لم ينل ما يستحقه من البحث ولا يزال يحتاج إلى كثير من الدرس، هو أن ظاهرة التأثير قد تغلغلت أيضًا إلى قلب العمل الديني والعبادة الدينية، كما ظهر في شعائر الصلاة في الكنيس. وهذه الظاهرة تنطوي على تجديد زائد؛ فإن اليهودية منذ القدم شادت من حول حدود العمل الديني سورًا عاليًا كي تمنع تسلل التيارات الخارجية، والعقيدة الكامنة في

---

(١) كتاب وضعه موسى بن ميمون الحكيم اليهودي الذي توفى بمصر عام ١٢٠٤م، ومعنى عنوانه " تثنية التوراة " وهو بحث منظم عن الفقه والتشريع اليهودي استمده مؤلفه من التلمود وشروحه وهوامشه، وقسمه إلى أربعة عشر كتابًا عبر اللاحقون به عن إعجابهم بها عندما أطلقوا عليها yd h h z q h " يد القوة " والقيمة العددية للكلمة الأولى هي ١٤ أي عدد الكتب التي يضمها هذا المؤلف. وقد جاء في كتاب إسرائيل ولفنسون " موسى بن ميمون : حياته ومصنفاته " ص٤٥ وما بعدها عرض لهذا المؤلف (النجرح).

(٢) انظر جولد تسهير : ZDMG XXXV. 774-775.

(٣) المرجع السابق : L11. 546.

وصايا التوراة هي " لا تقلدوا عادات الأمم[*] " فمثل هذه العقيدة لم تنشأ إلا لتكون سدًا في وجه المؤثرات الخارجية. وعلى الرغم من كل هذا فالمعروف أن الديانة اليهودية لم تسلم من هذه المؤثرات. وفيما يتعلق بدين العرب فقد تضافرت عوامل عدة على تهيئة القلوب لقبول تأثيره وارتضائه : الأخوة في الأصل واللغة، والتقارب في الطباع، ثم قبل كل شئ التوحيد الشريف الذي امتاز به ذلك الدين، الأمر الذي أدى إلى استثناء عدد من الجاءونيم[1] للمسلمين من بين بقية الأمم فيما يتصل بالقوانين الخاصة المنصوص عليها بحسب حكم التلمود. وتبعهم أيضًا الحبر موسى بن ميمون، فالدين الإسلامي وحده لا يعد في نظره دينًا وثنيًا. بينما حكم على النصرانية بأنها دين وثني تمامًا. ثم سار ابنه الحبر إبراهيم الميموني خطوات أبعد من ذلك فجاء وأخرج المسلمين من القاعدة القائلة " لا تتعودوا بعادات الأمم " وأفتى بأن الذي يحاكي عاداتهم لا يعد مستبيحًا لما حرمته القاعدة. ولا شك أن مثل هذا الموقف المتسامح كان يهدف إلى فتح ثغرة أكبر من رأس الإبرة ينفذ منها التأثير الأجنبي على العادات اليهودية.

(*) النص العبري " L' / tlkh w / bhqwt / hgwy " اللاويون ٢٠ : ٢٣ وترجمته في النسخة العربية المتداولة " ولا تسلكون في رسوم الشعوب الذين أنا طاردهم من أمامكم " ويمكن أن نقارن في هذا المعنى أيضًا ما جاء في سفر التثنية ١٨ : ٩ " لا تتعلم أن تفعل مثل رجس أولئك الأمم " وموقفنا في الإسلام شبيه بهذا حتى نتفادى التشبه بما يفعله أتباع الأديان الأخرى (الجرح).

(١) يعرف بهذا اللقب رؤساء المدارس الدينية اليهودية بالعراق في سورا وفومبديتا منذ أواخر القرن السادس إلى نصف القرن الحادي عشر الميلادي.

وكان الجاءون يشبه المفتي في الإسلام، ويمثل السلطة الدينية المركزية التي تعمل على نشر تعاليم التلمود، وتشجيع التفقه في الديانة بصفة عامة (الجرح).

وسنرى من خلال الأمثلة التي سنتناولها أن هذا التأثير ظهر أساسًا بطريقتين:

أولاً : باستيعاب عادات تختص بالعبادة لا أساس لها في التقاليد الإسرائيلية.

ثانيًا : بإحياء عادات قديمة اندثرت من عند اليهود تحت تأثير أسباب معينة.

وهنا يجدر بنا أن نشير على وجه الخصوص إلى ظاهرة هامة وهي أن العادات التي هجرها اليهود بدافع العزلة والابتعاد عن النصرانية ارتدت ثانية إلى اليهودية بتأثير من الدين الإسلامي. وعلى أي حال فليست الغاية من هذا البحث استقصاء الموضوع والإحاطة به من كل جوانبه، بل فتح باب البحث فيه.

أولاً : غسل الرجلين للصلاة

(أ)

كان ذلك التشريع الوارد في " تثنية التوراة " والذي يقضي بغسل القدمين قبل صلاة الصبح SH h ryt في نظر الحبر إبراهيم بن داود[1] لغزًا لم يجد له حلاً : "لست أدري لما رجليه ؟" ولم يجهر بمثل هذه الكلمات ليخالف الحبر موسى بل أتى ليعبر عن دهشته : " من أين جاء بمثل هذا الفرض ؟ وما أصله وما مصدره ؟".

أما الحبر موسى الكاهن من مدينة لونيل[2] فيقف حائرًا أمام هذا التشريع في اطلاعاته المخطوطة[3] التي لم تنشر بعد : " من الضروري أن ندرس من أين استنتج أن عليه أن يغسل يديه (ورجليه) [4] "؟

وقد تعب شراح الحبر موسى ومفسروه في أن يميطوا اللثام عن هذا التشريع ويكشفوا عن مصدره. وهناك حقيقة تنطوي على فائدة جليلة، وهي أن ما عثروا عليه بعد البحث والتنقيب في التلمود هي الفقرة التالية، غير أن شرحهم على هذه الفقرة لا يثبت أمام النظرة الناقدة :

---

(١) حبر يهودي عاصر موسى بن ميمون مؤلف تثنية التوراة، وتزعم معارضيه والمنددين به إلى حد أنه ألف كتابًا كاملاً نقد فيه موسى بن ميمون ورماه بمثالب شديدة ومن عبارته في النقد: " وهذا تخليط، ليس له من الحق نصيب - كلام صبياني - كلام ناشئ قليل المعرفة الخ ..." والعيب الرئيسي لكتاب موسى بن ميمون في نظر إبراهيم بن داود هو أنه أدخل فيه نظريات فلسفية مستقاة من مصادر غير إسرائيلية. وفي كتاب إسرائيل ولفنسون عن موسى بن ميمون ص٥٠ وما بعدها مزيد من هذا (الجرح).

(٢) مدينة لونيل Lunel بجنوب فرنسا (الجرح).

(٣) مخطوط اكسفورد رقم ٦١٧.

(٤) حذفت كلمة (ورجليه) من المخطوط خطأ من الناسخ.

فممن خفيت عليهم كلمات الحبر موسى بن ميمون في هذا الصـــدد، الحـــبر عزائيل هيلد سهيمر الذي عثر على نص في " هلخوت جدولوت[١] " مخالف للنسخة التلمودية المتفق عليها وهو " من يريد أن يأخذ على عاتقه ثقل الســـموات والأرض فليتوجع ويغسل يديه ورجليه .. [٢] " فلم يستطع أن يقدم أي تفســـير لـــهذه الكلمـــة الزائدة " ورجليه " سوى أن تكون خطأ من الناسخ.

ومنذ عدة سنوات وجد جاكوب مان – في إحدى قطع الجنيزة[٣] سفر الأعمال لأبناء فلسطين – الذي يرجع إليه الفضل في نشره – وفيه وجوب غسل الرجليـــن. فنبه إلى أنه لم يعثر على ما يدعم ذلك في مصدر آخر.

أما شاؤل ليبرمان الذي وجد من أسانيد ذلك هـــذا النـــص فـــي " هلخـــوت جدولوت " الذي ذكرناه آنفًا، فقد رأى أنه مضطر لإخراج كلمـــة " ورجليـــه " فـــي هذين الموضعين من معناها الحقيقي إلى معنى مجازي (وأثار هذا اهتمـــام علمـــاء اليهود المستشرقين نحو المبحث التلمودي الخمسين [٤]) وأسلمه هذا الاضطرار إلـــى

---

(١) نشر هيلد سهمبر ص٣٥، ومؤلف هلخوت جدولوت هو يهودای جاءون.

(٢) بزاخوت ١٤ : ٢.

(٣) وجدت بكنيس الشاميين بالفسطاط – بقرب كنيســـة بربـــرة التابعـــة للأقبـــاط الارثوذكـــس مخطوطات كثيرة يرجع بعضها إلى العصر الذي سبق ظهور المسيحية ومعظمها يرجع إلى عصر الفاطميين والأيوبيين وهذه المخطوطات تعد من أنفس المصادر وأقدمها فـــي تـــاريخ اليهود في مصر والبلدان المجاورة وتعرف باسم أدب الجنيزة والجنيزة hgnyzh كلمة عبرية تعني : الكنز أو الدفين وتطلق على مخزن في المعبد تدفن فيه الأوراق المهملة ولذا أطلـــق اسم أدب الجنيزة على ما وجد مدفونا من أوراق. وسنقوم بطبع مختارات منها في كتيبنـــا " التراث العربي العربي، ومختارات من أدب الجنيزة " الـــذي يصـــدر فـــي هـــذه السلســـلة (الجرح).

(٤) انظر الدورية العبرية " تربيص " السنة الأولى العدد الثالث ص٧ وما بعده.

أمر آخر أعظم منه، لأنه عندما وجد يهودای الجاعون كذلك يتحدث عن غسل اليدين والرجلين - وكان واضحًا من كلامه أنه قصد الرجلين حقيقة - اندفع إلى افتراض أنه قد وقع انقسام في الآراء بين بابل وفلسطين في تفسير هذه الكلمة. ففي بابل فسروا رجليه تفسيرًا حقيقيًا، وفي فلسطين فسروها تفسيرًا مجازيًا.

(ب)

نشأت هذه الحيرة بسبب الحقيقة القائلة بأن هذه العادة التي نحن بصددها ليس لها أساس في الشريعة التلمودية - كما سنفصل القول فيها بعد - من ناحية، وبسبب قلة المصادر عن وجودها بين يهود الأقطار الشرقية - من ناحية أخرى. والمصادر التي تذكرها تدل على سعة انتشار هذه العادة وأنها شملت تقريبًا اليهودية في كل الأقطار الإسلامية :

١- " سفر الأعمال لأبناء فلسطين ".

٢- يقول الحبر نطروناى جاعون سورا في " البركات المائة ": " وسألتم أن أفسر لكم ما هي البركات المائة. فإليكم هي ... وهي شريعة، لأن الإنسان عندما يستيقظ من نومه محرم عليه أن يصلي ولو مجرد مرة واحدة حتى يغسل يديه لينفذ ما قيل : استعد للقاء إلهك يا إسرائيل[1]. ولذلك فعندما يستيقظ المرء يتوجه ويصلح شأنه ويغسل يديه ووجهه وقدميه ويصلى كالمتبع ".

٣- كلمات نطروناى هذه نقلها خلفه الحبر عمرام جاعون في ترتيبه قائلاً : هكذا أجاب الحبر نطروناى : أن أداء كل بركة في وقتها أمر غير مستطاع بسبب نجاسة اليدين الشغالتين المعتادتين على اللمس. بل

---

(١) عاموس ٤ : ١٢.

عندما يستيقظ المرء من نومه يغسل وجهه ويديه ورجليه كما يجب، لينفذ ما قيل : استعد للقاء إلهك يا إسرائيل.

٤- كتاب صلوات الحبر سعديا جاءون وسنفرد له القول فيما بعد.

٥- يقول الحبر هائي جاءون : " والذي يدخل المرحاض (في يوم التكفير) ليبول يغسل يديه ورجليه كما في الأيام العادية على الرغم من أنه ليس بوسخ ".

٦- يقول سليمان بن ناثان[1] : " أعلم أنه يجب على المؤمن في بكرة كل يوم أن لا يتصرف من شئ من تصرفاته إلا بعد قضاء ما يلزمه من غرض صلاة البركة وذلك أنه إذا قام من فراشه يستنجي ثم يغسل وجهه ويديه ورجليه ويبارك ".

٧- يقول الحبر موسى بن ميمون في " تثنيه التوراة " فيما يتصل بقواعد الصلاة : " ... لا يطهر للصلاة سوى يديه فقط في كل الصلوات ما عدا صلاة الصبح. أما في الصباح فيغسل وجهه ويديه ورجليه ويصلي بعد ذلك ".

٨- أفرد إبراهيم بن موسى الميموني فصلا للكلام في هذا الموضوع في كتابة " كفاية العابدين " وسننقل كلامه فيما بعد.

---

(١) في مخطوط باوكسفورد رقم ٨٩٦.

٩- في مقدمة لكتاب صلوات أرض إسرائيل من الجنيزة : بتقديس وبخوف كما قيل " ومقدسي تهابون[١] " لذلك زود الأولون جميع أفنية المعابد بأحواض للماء الجاري لغسل اليدين والرجلين.

١٠- سعديا العدني[٢] " وقال : بعد ذلك اصنع حوضًا من نحاس ومقعدة من نحاس للغسل[٣] - نبهنا ربنا عز وجل في هذا على غسل اليدين والرجلين قبل كل صلاة كما كان يفعل الكهنة قبل دخولهم إلى القدس، وكذا يجب علينا أن لا نتقدم للصلاة حتى نغسل يدينا ورجلينا من كل عمل ".

١١- في كتاب صلوات[٤] اليمن : " وعندما يخرج من بيت الماء سواء كان في الليل أو في النهار يبارك على غسل اليدين ويبارك ... الذي خلق والذي يصنع العجائب. وبعد أن يغسل وجهه ويديه ورجليه يبارك ... الذي أبعد النعاس عن عيني والنوم عن جفني ".

وعندما تقسم هذه المصادر حسب أماكنها نجد أن غسل الرجلين كان متبعًا في فلسطين (سفر الأعمال، مقدمة كتاب صلوات أرض إسرائيل)، العراق (نطرونای، سعديا، عمرام، هائي) وفي جنوب أفريقيا (سليمان بن نائان من سجلمسا) في مصر (موسى اليميوني) في عدن (سعديا العدني) وفي اليمن (كتاب صلوات اليمن).

---

(١) لاويون ١٩ : ٣٠ ، ٢٦ : ٢.

(٢) في شرحه باللغة العربية على سفر الخروج، مخطوط اكسفورد رقم ٢٤٥.

(٣) خروج ٣٠ : ١٨.

(٤) مخطوط اكسفورد رقم ٣ : ٢٧.

(م)

هل لسنة غسل الرجلين قبل الصلاة أساس في الروايات المأثورة التلمودية ؟ يجب أن نجيب عن هذا السؤال بالنفي. إذ أن دراسة المصادر التلمودية التي تتناول التطهر قبل الصلاة تفيدنا أن التشريع يقضي بغسل اليدين فحسب وهذه المصادر هي :

١- باريثا ستاميت bryy th'stmyt[١] (براخوت ١٤ : ٢) : " يعفى الذي حفر حفرة لميت في قبر من " تلاوة الأقداس[٢] " ومن الصلاة ومن كل الوصايا المذكورة في التوراة فإذا حان وقت " تلاوة الأقداس " يصعد ويغسل يديه ويضع التفيلين[٣] ويتلو ويصلي ".

٢- مقالتا الحبر يوحنان : وقال الحبر يوحنان من يريد أن يأخذ على عاتقه عبء ملكوت السموات يتوجه ويغسل يديه ويضع التفيلين ويتلو " تلاوة الأقداس " ويصلي ... وقال الحبر يوحنان أيضًا : كل من يتوجه ويغسل يديه ويضع التفيلين ويتلو " تلاوة الأقداس " ويصلي يفوز بما

---

(١) باريثا : كلمة آرامية تعني الحكم والأقوال المأثورة عن التنائم التي لم تضم إلى المشنا (الجرح).

(٢) أجزاء من سفر التثنية ٦ : ٤ - ٩ ، ١١ : ١٣ - ٢١ وسفر العدد ١٥ : ٣٧ - ٤١ تتلى في الصلاة (الجرح).

(٣) هذا تعريب للاسم الآرامي tifilin أو tifillin وهو بالعبرية tflym جمع tflh - والمراد به قطعتان من ورق مكتوب على كل منها أربع فصول من التوراة توضعان داخل حافظتين من جلد يلبسها اليهود كالأحجبه، لتذكرهم بالشريعة دائمًا حين الصلاة، ولذلك تشد إحداهما فوق الذراع الأيسر مقابل القلب، وتعصب الثانية حول الرأس فوق أعلى الجبهة مقابل المخ- وللمزيد من التفاصيل في هذا الصدد انظر كتاب أساس الدين للدكتور هلال فارحي ص٥٠. (الجرح).

قيل : كأنما بنى مذبحا وقدم عليه قربانا؛ لأنه جاء " أغسل يدي في النقاوة فأطوف بمذبحك يا رب "[1].

٣- شهادة البر حيا براشي Hyy' Br' shy وتنص أيضا على وجوب غسل اليدين : " وقد أولى الأمورائيم المتأخرون اهتماما خاصا[2] لتعاليم السراب[3] ودققوا في تفصيلاتها غير أنهم لم يجدوا صعوبة على الإطلاق بسبب غياب غسل الرجلين. وفي الحق أن تلك التعاليم كانت تمثل العادة المقبولة المتفق عليها فيها بينهم ".

وبالإضافة إلى ذلك لا يزال مع الواجب علينا أن نعالج ذلك النص الذي أشرنا إليه في " هلخوت جدولوت "، والذي يتطلب غسل اليدين والرجلين. ومن البديهي أنه لو ثبت صحته فإن رأينا الذي يذهب إلى أن هذه العادة التي نحن بصددها ليس لها أساس من التلمود، يصبح لا قيمة له. ولكن دعنا نقيم الدليل على أن هذا النص لم يرد في مخطوطات التلمود أو كتب الأقدمين، لا يرتكز على أساس. فمن الواضح أن كل ما يستند إليه في هذا الموضع هو أنه كان دراسة ليهوداى الجاءون نفسه لم يدرسها على الرغم من وجودها في كتابة الآن؛ إذ أن أقوال الجاءون تتناقض مع بعضها : فهو يذكر في نفس الصفحة مباشرة شروط متصلاة في الكلمات التالية[4] " وعلى الإسرائيلي أن ينظف نفسه ويطهر يديه ويتزين كما قيل:أغسل يدي في النقاوة...الخ ".

---

(١) مزامير ٢٦ : ٦.

(٢) h' m w r' ym اللفظ الذي يطلق على جيل من فقهاء التلمود بعد جيل التنائم، فيما بين عامي ٢٢٠ و ٥٠٠ م (الجرح).

(٣) لقب الأمورائيم البابليين، وكنية أبا أريخا مؤسس مدرسة سورا (٢ التأثيرات).

(٤) هذه الكلمات مكتوبة باللغة الآرامية أما النص موضع الشك فبالعبرية (الجرح).

ومن الواضح أنه يطلب غسل اليدين فحسب. وإذا أنعمت النظر فستجد أن كلمات الجاءون مبنية على مقالة الحبر يوحنان الثانية[1] فهي التي كانت بين يديه عندما حرر هذه الكلمات لأنه دعم قوله بآية " أغسل يدي في النقاوة فأطوف بمذبحك يا رب ".

ومن المستطاع بسهولة تفسير إضافة (ورجليه) الموجودة في نسخة " هلخوت جدولوت " التي تحت أيدينا، استناداً إلى ظاهرة متكررة الوقوع، ولاسيما في مجال الصلوات والأدعية – تلك هي ظاهرة دس النساخ للعادات التي ألفوها في نص التلمود نفسه أثناء النسخ، خاصة وأن هذا الأمر من الممكن حدوثه دون إسقاط الكلمات الأصلية عن مواضعها أو استبدالها بغيرها بل بالإضافة إليها. وفيما نحن بصدده أضيفت كلمة واحدة، فالناسخ في هذه الحالة لم يقع في الخطأ بل حاول الإصلاح. ولكن كما يحدث في مثل هذه الحالات لم يراع " المصلح " الكمال في إصلاحه. فلم يدخل " إصلاحه " ذلك على كلمات الجاءون المكتوبة باللغة الآرامية أيضًا[2]. وإذا كان لهذا النص أي قدر من الأهمية فإن ذلك ينحصر في هذا الموضع في إظهار العادة التي سادت في عصر الناسخ ومكانه، وزيادة " الرجلين" هنا تشير إلى شيوع عادة غسلهما، دون ورود ذلك في النص.

وقد استنتجنا أن كل المواضع التلمودية تتفق فيما بينها فكلها تطالب بغسل اليدين فقط، ونعلم أن الإسرائيليين اعتادوا هذا أيضًا في الأجيال المتقدمة، قبل خراب الهيكل بزمن طويل، من رسالة أريسطياس (٣٠٥-٣٠٦) التي ذكر فيها قصة شيوخ أورشليم السبعين الذين قاموا بترجمة التوراة إلى الإغريقية. فقد قاموا بغسل أيديهم قبل صلاتهم وقيامهم بالترجمة ... أيديهم، لا أرجلهم ! وكذلك تبرهن

---

(١) انظر ص١٢ سطر (٥).

(٢) انظر ص١٣ سطر (١٢).

الحسيدة hsybhyih (٥٩١-٥٩٤) : ولكنهم يرفعون أذرعتهم الطاهرة إلى السماء عندما يقومون من فراشهم مبكرين ويطهرون أيديهم بالماء ... وهكذا تعود قدماء النصارى.

ويمكن أن يقال إن هناك اتفاقاً فيما نحن بصدده بين الأسفار الخارجية من ناحية وبين ما حرره شراح المشنا، وأوائل الأمورائيم الفلسطينيين[١] والعراقيين والحبر يوحنان، والأمورائيم العراقيون المتأخرون من ناحية أخرى[٢].

(د)

إن عادة غسل الرجلين قبل الصلاة مأخوذة من العبادة الإسلامية. وعندما تمثل أمام أعيننا الأهمية البالغة التي انفرد بها الوضوء في الإسلام تتكشف لنا حقيقة قبول هذه السنة وانتشارها العظيم بين اليهود في الشرق. وكان لأهمية الوضوء البالغة أن أطلق عليه في واحد من الأحاديث النبوية عبارة " نصف الإيمان"[٣]

---

(١) وإزاء مقالتي الحبر يوحنان الواضحتين. لا تنهض القصة الواردة في التلمود الأورشليمي وهي قصة الرجل الذي غسل رجليه في كنيس بيت شان على إثبات أي شئ فيما نحن بصدده فليس هناك أي دليل يثبت أن هذا الغسل كان يختص بالعبادة. فالمناخ في أنحاء الشرق، ولاسيما في الوقت الذي أكثروا فيه من السير حفاة يتسبب في قذارة الرجلين واتساخهما، ومن اتسخت رجلاه بالطين والوحل لا يسمح له بالصلاة حتى يغسلهما. فأين من ذلك غسل الرجلين المختص بالعبادة والمطلوب حتى لو كانت الرجلان نظيفتين ؟!

(٢) في الحقيقة لم يجد الباحثون الذين اشتغلوا بتقصي مصادر الإسلام دعائم لغسل الرجلين في المصادر اليهودية التلمودية واكتفوا بإظهار التوافق الموجود في الديانتين بالنسبة لوجوب التطهر قبل الصلاة (تطهير اليدين) على وجه العموم.

(٣) الحديث بتمامه كما جاء في سنن الدارمي ١ ص١٦٧ هو " عن رجل من بني سليم قال عقدهن رسول الله ﷺ في يدي أو قال عقدهم في يده ويده في يدي : سبحان الله نصف الميزان والحمد لله تملأ الميزان، والله أكبر تملأ ما بين السماء والأرض، والوضوء نصف الإيمان، والصوم نصف الصبر " (الجرح).

وليست ماهية هذا الوضوء كماهية الوضوء اليهودي فيتحتم في الوضوء الإسلامي بالإضافة إلى غسل اليدين إلى المرفقين غسل الرجلين إلى الكعبين، ومسح الرأس وغسل الوجه، ومسح الأذنين وما خلفهما، والمضمضة والاستنشاق...الخ.

وإزاء هذا الفارق الكبير لم يتمكن اليهود أن يدفعوا الشعور بالاستياء الذي لحقهم من جراء وضوء المسلمين البالغ العناية، بل كانوا يشعرون بالضعة لأنهم يتسرعون في عبادة الله إذا قيسوا بجيرانهم المسلمين. وتعجب اليهود من سبق العرب لهم في هذا المضمار وهم – في رأيهم – أدنى منهم مرتبة. ونحن نجد تعبيرًا عن هذا الشعور لدى الشاعر الصوفي[1] مناحيم دي لونزانو الذي حض على العناية بغسل الرجلين بقوله :

لا يكن العرب أكثر منك طهارة ...

الذين يغسلون أيديهم وأرجلهم بالماء في الفجر، وظهرًا وعشية.

وحتى في الليل، بينما يشتد البرد ويسقط الثلج.

وفي ضوء الحقائق التالية تتضح أيضًا قوة التأثير الذي صدر عن البيئة الأجنبية فقد كانت مسألة الوضوء قبل جميع الصلوات بصفة عامة وغسل الرجلين في حالات معينة بصفة خاصة نقطة الخلاف بين الفرقتين الدينيتين الإسلاميتين أعني الشيعة وأهل السنة، فنادى أصحاب مذهب الشيعة – استنادًا إلى نص القرآن– بوجوب الوضوء قبل كل صلاة من الصلوات الخمس اليومية بينما اكتفى أصحاب السنة بوضوء واحد، لسائر الصلوات ما دام لم يأت في غضون ذلك ما يوجب التطهر من جديد نحو قضاء حاجة أو نوم ... الخ. وقد احتدم الجدل في العالم

---

(١) الوصف العبري هنا هو hmqwbhl نسبة إلى القباله وهي الحركة الصوفية المعروفة والتي تأمل أن نصدر عنها حلقة دراسية في هذه السلسلة (المحرر).

الإسلامي حول هذه المسألة إلى الحد الذي اتهم فيه السنيون بمحاولة تزييف نص القرآن حتى يتفق ونظامهم[1].

ونشب خلاف آخر أشد عنفًا حول مسألة أخرى. فإزاء الشروط الثقيلة لغسل الرجلين أجازت المذاهب الأربعة المسح على الخفين بدلاً من غسل القدمين ولكن فقهاء الشيعة عارضوا هذه الرخصة. ومما أجج نار الخلاف اعتبار علماء السنة أن رخصة المسح على الخفين تمثل أصلاً من أصول الدين وأن من لا يقره يكن زنديقًا[2].

ولم يكن بد من أن تؤثر مثل هذه المشكلات المتعلقة بالعبادة والتي حطمت وحدة العالم الإسلام وفرقته شيعًا وأحزابًا – على عادات العبادة اليهودية؛ كما أثبت المشكلات الدينية والفلسفية التي أثارها العلماء العرب على الفكر الإسرائيلي[3].

---

(١) انظر Vorlesungen uber den Islam : Goldziher ص٣٦٩.

(٢) يعكس تفسير الإمام الحافظ إسماعيل بن كثير (ت. ٧٧٤هـ) لقوله تعالى في سورة المائدة (آية ٦) " يا أيها الذين أمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين " صورة صادقة للخلاف بين فقهاء المسلمين حول هاتين النقطتين، فالجمهور لا يحمل الآية على ظاهرها، وإنما يؤول إذا أقمتم إلى الصلاة أي وأنتم محدثون، أو إذا قمتم من النوم إلى الصلاة، ويرى آخرون أنه أمر بالوضوء عند كل قيام للصلاة ولكنه في حق المحدث للوجوب، وفي حق المتطهر للندب، ولكن هناك من يرى أنه أمر بالوضوء عند كل صلاة، وقد روى أن النبيﷺ كان يلتزم ذلك حتى يوم الفتح فتوضأ ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد .. ومن أراد تفصيل كل ما قيل في ذلك فليرجع إلى مظانه في موسوعات التفسير (الجرح).

(٣) أشرنا في تصديرنا هذه الترجمة إلى أن العلاقة بين الفلسفتين الإسلامية واليهودية في القرون الوسطى موضوع أخصب وأجدر بالدراسة (الجرح).

ومما يدل على عمق هذا التأثير أن تطهير الرجلين لم يكن وحده هو الذي صادف هوى وقبولاً بين اليهود، بل اقتبسوا أيضًا سائر أركان الوضوء نحو غسل الذراعين وما وراء الأذنين ومسح الرأس والاستنشاق. وهذه الظاهرة التي يستنكرها الحبر إبراهيم بن داود تستحق تأكيدًا خاصًا. لأنها تلقي كثيرًا من الضوء على عظمة التأثير الإسلامي في العادات اليهودية.

ونجد في موقف الحبر المشار إليه من التقليد اليهودي للعبادة الإسلامية ما نستفيد به في هذا الصدد. فعلى الرغم من أن رأيه ليس مقبولاً فإن تعليله مفيد للغاية، إذ أنه لم يجد كلمات أكثر استنكارًا لهذا التقليد - الذي هو شبه نقل تام للوضوء الإسلامي إلى داخل التخوم اليهودية - سوى أن يقول " هذا ليس ضروريًا، لأن لنا في شرائعنا وعاداتنا ما يكفينا " ورأى أن لزامًا عليه - كأنما يريد أن يحفظ للمقلدين ماء وجههم - أن يضيف : " ولو أن هذا لا يندرج تحت عادات الأمم[1] لأن العرب يؤمنون بوحدانية الخالق ".

وتعوزنا المصادر لمعرفة ما إذا كان هذا التقليد التام قد حظي بسعة الانتشار أم لا. ومن الجلي أنه بقي في نطاق " العادة الخارجية " ولذلك لا نجد أثره واضحًا في آدابنا[2]. والأمر يختلف بالنسبة لغسل الرجلين وهو ما وضع عليه كل من الحبر سعديا جاءون والحبر موسى الميموني أيديهم. ولهذا اكتسبت هذه العادة سلطة القانون ولقيت اعترافًا رسميًا من جانب رئيسي اليهودية هذين، وهما اللذان عم تأثيرهما كل اليهود الشرقيين. ومن المؤكد أن الذي دعا إلى ذلك أيضًا هو قدم هذه العادة التي كان متفقًا عليها - على الأقل - في فلسطين في صدر الإسلام، وفي أيام

---

(١) التي صدر النهي عن التعود بها " لا تتعودوا بعادات الأمم " (الجرح).

(٢) لقد حاكى القراؤون في دمشق فقط أركان الوضوء الإسلامي إلى حد ما، وبما هو جدير بالذكر استعمالهم المصطلح الإسلامي "وضوء" انظر : J.Q.R.XVII p. 512 .

الحبر سعديا، وعلى الخصوص في عصر موسى الميموني حيث كان لها حظ كبير من الروايات المأثورة. ومع أن هؤلاء الأحبار قد عرفوا جيدًا أن هذه العادة ليس لها أساس أو مصدر تلمودي فقد وجدت حظوة لديهم بعد أن تفشت بين اليهود ولذا أثبتوها في مؤلفاتهم. وسنجد فيما بعد نموذجًا شيقًا لشيوع مثل هذا التفكير فيما يختص برأي موسى بن ميمون في اغتسال المجانب. فهو يرى أن هذا الاغتسال يبطل وفقًا لشريعة التلمود، ويقرر أن اليهود الذين مازالوا يتمسكون بهذا الاغتسال في الأقاليم العربية يفعلون ذلك بتأثير من البيئة الأجنبية. ورغمًا عن ذلك فهو يشهد بأنه بالذات معتاد أيضًا على الاغتسال لأنه رأى أسلافه يتبعون ذلك.

(هـ)

فإذا افترضنا، أن غسل الرجلين قبل الصلاة مصدره التأثير الخارجي اتضح لنا – كما سنبين – لماذا اختصت به صلاة الصبح فقط، وانكشفت لنا الأسباب الحقيقية التي كان لها تأثير على أصحاب الرأي المخالف، الذين يطالبون بهذا الغسل قبل كل صلاة. وما وقع من انقسام في الآراء بشأن ذلك يتضح جليًا من اختلاف النسخ المنسوبة إلى الحبر سعديا جاءون. فوفقًا للنسخة المطبوعة يكون هذا الغسل مطلوبًا قبل كل صلاة على حين أن قطع الجنيزة تطلب ذلك قبل صلاة الصبح فقط.

ولكي نعين النسخة الأصلية ننقل هذه النسخ المختلفة[1].

---

(١) هذه الفقرات محررة في الأصل – شأن الكثير من إنتاج الجاءون سعديا – باللغة العربية لكن بالخط العبري، ولذلك فإن جهد المترجم هنا يقتصر على النقل من الحروف العبرية إلى الحروف العربية (الجرح).

- ١ -

أما قبل كل صلاة لا بد من غسل اليدين وحد ذلك الزندان والرجلين إلى الكعبين من أي صنعة عملية بعد الاستنجاء وغسل الوجه على هذا الترتيب

- ٢ -

أما قبل كل صلاة فلا بد من غسل اليدين من أي عمل أو صناعة وحد..

أما في صلاة الغداة فغسل اليدين إلى الزندين والرجلين إلى الكعبين والاستنطاف.

- ٣ -

أما قبل كل صلاة فلا بد من غسل اليدين من أي عمل أو صناعة عملاً وحد ذلك إلى الزندين وأما في صلاة الغداة فغسل اليدين إلى الزندين والرجلين إلى الكعبين بعد الاستنجاء والاستنطاف وغسل..

- ٤ -

أما .. فلا بد من غسل اليدين من أي عمل أو صنعة عملا وحد ذلك إلى الزندين (وأما في صلاة الغداة فغسل اليدين إلى الزندين) والرجلين والاستنطاف..

وأول ما يستنتج من المقارنة التي عقدناها أن كل مخطوطات الجنيزة تتفق على شئ واحد هو غسل اليدين، وفي الغالب أن النسخة الرابعة تنقص عبارة (وأما. الزندين) الموضوعة بين قوسين، ولكن ليس هناك أدنى شك في أن هذه العبارة قد سقطت نتيجة لخطأ وقع فيه الناسخ بسبب الكلمات المتشابهة ويدل نمط كتابته على أنه يتبع نوع قطع الجنيزة الأخيرة. والواقع أن النسخ الثلاث الأخيرة تتفق فيما بينها اتفاقًا لا يشاركها فيه المخطوط الأول ولذلك فمن حقنا أن نستخدم هذه الحقيقة كدليل

على أن نص هذه المخطوط الأول ليس أصيلاً، وسنضيف إلى هذا الدليل دليلاً آخر مستمدًا من النص نفسه : فقد جاء في النسخة الأولى : " أما قبل كل صلاة لابد من غسل اليدين .. والرجلين من صنعة عملية بعد الاستنجاء وغسل الوجه ". ولا شك في اضطراب النص هنا لأن الاغتسال على أية حال ضروري في حالة قضاء الحاجة. سواء أدى عملاً أم لا. والكلمات " من أي صنعة عملية " لا تتضح إلا وفقًا لموضعها في قطع الجنيزة. أضف إلى ذلك أننا نجد في النص أن غسل الوجه ضروري قبل كل صلاة، الأمر الذي ليس له ما يعضده في أي مصدر من المصادر التي أشرنا إليها آنفًا. ولأن نص قطع الجنيزة هو الأصلي لذا نجد أن رأي الجاءون يتفق مع رأس الحبر موسى الميموني ومع العبادة التي كانت سائدة في مصر في عصر ابنه الحبر إبراهيم.

وهنا يثار سؤال : لماذا قصر غسل الرجلين على صلاة الصبح فحسب ؟ لو أن هذه العادة نشأت في البداية عن مماثلة الصلاة للقرابين[1] لقضت هذه المماثلة بالقيام بغسل الرجلين قبل كل صلاة، ولما لم يكن الأمر كذلك فلابد لنا أن نقول بأن هذا التحديد بالصبح يدل على المصدر الأجنبي لهذه العادة التي نحن بصددها.

---

(١) كان التقرب إلى الله بالذبائح عند المحراب، ولما وحد الهيكل، وتعذر على العبرانيين أن يحجوا بضحاياهم إلى ذلك الهيكل الواحد من جميع النواحي، استعيض بالذكر والصلوات عن النحر والتضحية، وأخذ اليهودي يتهيأ للذكر والصلاة كما كان يتهيأ هو أو أسلافه للتقرب بالضحية، ويقول الكاتب أنه لو كان غسل الرجلين قد انتقل من طقوس الاستعداد للنحر إلى الاستعداد للصلاة، لما خصص بصلاة الصبح. وقد تناولنا في محاضرتنا عن تطور الديانة اليهودية التي تصدر في هذه السلسة (المحاضرة الثانية) كيف انتقلت العبادة من النحر إلى الذكر (الجرح).

فكما أشرنا من قبل يطالب أصحاب السنة بالوضوء قبل الصلاة الأولى فقط. وعندما تشبه اليهود بالمسلمين لم يذهبوا إلى حد أبعد منهم.

وفيما يختص بالمخطوط يجوز لنا بكل تأكيد أن تفترض أن هناك أيد عبثت به بقصد الإصلاح، وإن المصلحين المجهولين قد وقعوا أيضًا تحت تأثير البيئة الأجنبية.

فعلى الرغم من أن فرقًا من الشيعة والظاهرية يوجبون الوضوء قبل كل صلاة، فكذلك أصحاب السنة يرتضون هذا - حتى وإن لم يحدث ما ينقض الوضوء- ويعتبرون هذا من قبيل المندوب المستحب، ولذا حرص هؤلاء المصلحون على ألا يكونوا أقل من جيرانهم في هذا ورعًا.

(و)

ويأخذ بهذا الرأي الورع أيضًا الحبر القانت إبراهيم بن رامبام[1] الذي سنجده فيما بعد يدخل الإصلاحات على شعائر الصلاة طبقًا للعبادة الإسلامية وقد خصص للمسألة التي نحن بصددها شبه ملحق خاص في كتابه " كفاية العابدين[2] ".

---

(١) يطلق اليهود على موسى بن ميمون لقب رامبام وذلك جمع للحروف الأولى من اسمه ولقبه (ربى موسى بن ميمون R M B M)، ونحن ننقل هنا هذا اللقب العبري بلفظه كما استعمله المؤلف، بدلاً من اسم الحبر الفيلسوف. والحبر القانت إبراهيم المذكور هنا هو ابن الحبر الفيلسوف موسى بن ميمون، ووحيده، وقد ولد له وهو في سن الخمسين، وكان ذلك في الخامس عشر من يوليو ١١٨٦م وعني به أبوه فأصبح عالمًا عظيمًا، طبيبًا بارعًا، وقد اختير لزعامة الطائفة اليهودية بعد وفاة أبيه، وظل يشغلها حتى مات في ديسمبر ١٢٣٧م. وانظر إسرائيل ولفنسون : موسى بن ميمون ص٢١ (الجرح).

(٢) كتاب في الفقه الإسرائيلي باللغة العربية لإبراهيم بن موسى، وقد ظل ضائعًا لا يعرف أحد عنه إلا ما نقله منه المتأخرون من مؤلفي الفقه اليهودي في كتبهم،حتى عثر المستشرق روزنبلات على بعض نسخه فأخرج الكتاب وقدم له. وانظر رابعًا ب من هذا البحث(الجرح).

ويجدر بنا هنا أن نذكر كلماته بحذافيرها؛ فهو يقول في معرض كلامه عن غسل اليدين :

" من صلى دون أن يغسل يديه بالماء .. فكأنه لم يقم بواجبه نحو الصلاة وينبغي عليه أن يصلي ثانية. هذا هو الحكم الذي يشمل كل صلاة وقد أوصوا بغسل الوجه والرجلين مع اليدين في صلاة الصبح ولكن هذا ليس ضروريًا مثل اليدين ".

وكتب في الملحق :

" والذي نجد من الضروري أن نضيفه أيضًا إلى وجوب تطهير الرجلين، هو أنه إذا كان غسل اليدين ضروريًا لا يمكن التخلص منه فالمستحب والمفضل هو غسل اليدين والرجلين معًا، ليس هذا فقط عند صلاة الصبح بل عند كل صلاة. ولما كانت الصلوات بالمقارنة إلى التقربات تعتبر تنظيمات، ولأن الصلوات تحل محل القرابين ولأن التوراة قالت " ... أو عند اقترابهم إلى المذبح يغسلون أيديهم وأرجلهم لئلا يموتوا ... الخ "[1] فمن الضروري أن يحرص على غسل يديه ورجليه عند كل صلاة وألا يكف عن فعل ذلك حتى لو لم توجد ضرورة - لأننا إذا استندنا إلى قول داود : " وأغسل يدي في النقاوة " نستند أيضًا إلى آية : ويغسلون..الخ. لأن في هذا مماثلة لعبادة " بيت المقدس ".

---

(1) الخروج ٣٠ . ١٩-٢٠ " وهذا نص الآيات كاملة لأهميتها في هذا السياق " وكلم الرب موسى قائلاً : وتصنع مرحضة من نحاس وقاعدتها من نحاس للاغتسال، وتجعلها بين خيمة الاجتماع والمذبح وتجعل فيها ماء، فيغسل هارون وبنوه أيديهم وأرجلهم منها عند دخولهم خيمة الاجتماع، يغسلون بماء لئلا يموتوا، أو عند اقترابهم إلى المذابح للخدمة ليوقدوا وقودًا للرب. يغسلون أيديهم وأرجلهم لئلا يموتوا ويكون لهم فريضة أبدية ولنسله في أجيالهم " (الجرح).

والذي ينعم النظر في هذه الكلمات يرى أنها تبدأ بالوصيـــة وبالثنـــاء علـــى التوسع في غسل الرجلين عند كل صلاة وتنتهي بالدفاع عن هذا الغســـل عمومًـــا. وهذه الظاهرة – أعني ما رآه الحبر إبراهيم هذا من أن الواجب يحتم عليه أن يدافـــع عن هذه العادة القديمة – تفيدنا أنه كان هناك في أيامه من يعارضها. ولا نبتعد عـــن جادة الصواب إذا فرضنا أن هذه المعارضة قامت من بين الأوساط التـــي نـــاوأت الحبر إبراهيم الميموني من جراء إصلاحاته والتي يجب أن نعتبر منها طلبه غســـل الرجلين قبل كل صلاة.

ونستطيع أن نتسمع صدى معارضيه في إجاباته، فقد زعم هؤلاء أن العـــادة التي نحن بصددها لا ترتكز على أساس من اليهودية واستشهدوا بآية " أغسل يـــدي في النقاوة " التي أسس عليها الحبر يوحنان، كما رأينا، وجوب غسل اليديـــن قبـــل الصلاة، وأشاروا إلى أن علماء التلمود لم يتحدثوا إلا عن غسل اليدين. وعلينـــا أن نذكر ما لم يورده الحبر إبراهيم من أقوال معارضيه بوضوح، وهو أنه " لما كـــانت هذه العادة لا تستند إلى أسس في اليهودية فلابد أنها مستعارة من عند المسلمين "

ويرد الحبر الميموني على هذا بقوله : إذا استندنا إلى " أغســـل يـــدي فـــي النقاوة" فيجب أن نستند إلى " اصنع حوضًا من نحاس " والسبب الذي من جرائه لـــم يذكر علماء التلمود سوى غسل اليدين فقط هو أهميتها البالغة لأن اليدين تســـتخدمان في الصناعة ولهذا تطلبتا تأكيدًا خاصًا.

ولقد اجتهد الحبر إبراهيم في أن يجد ما يعلل به هذه السنة – ويســـندها إلـــى أسس يهودية. أما أن الدافـــع على قبوله كان خارجيًا فهـــو غير ذي بال بالنسبة لـــه – وهو لم يذكر هذا أيضًا – مادام يستطيع أن يجد له تعليلاً وتبريرًا في المصـــادر الإسرائيلية. وهو هنا يمضي في خطته التي تقضي بأن لا خوف من " تقليد الأمـــم " في العادات التي لها ما يدعمها في شريعة إسرائيل.

ثانيًا : اغتسال المجانب

من أظهر الأمثلة على تأثير الإسلام على العوائد اليهودية عادة اغتسال المجانب. ومن الممكن أن نستخدم هذا المثل نموذجًا لسائر الأمثلة التي يتناولها بحثنا ونستطيع أن نستعين بما يتضح بصدده من حقائق على فهم ما يكون غامضًا في غيره.

لسنا بحاجة إلى أن نقف هنا على هذه العادة في العصر التلمودي وما تعرضت له من تغيير في بابل أو في فلسطين لأن كثيرين قد قاموا بدرس ذلك كله ولاسيما العلامة ليفي جينسبورج الذي وفى هذا التشريع حقه من البحث والتحقيق وما يعنينا هي تلك الحقيقة التي قررها جينسبورج، والتي مؤداها أن هذه العادة ليس لها ما يثبتها في حكم التلمود البابلي، وإنها في الواقع لم تكن مألوفة في بابل لا في العصر التلمودي ولا في عصر الجاءونيم الأوائل. بيد أنه ابتداء من العصر الوسيط للجاءونيم نرى أن هذه العادة قد ضربت جذورها في بابل أيضًا.

فما الذي دعا إلى هذا التحول ؟

إننا نجد الإجابة عن هذا السؤال لدى الحبر كوهين صيداق جاءون فومبديتا، التي طالب بالتدقيق في اغتسال المجانب " لأجل النظافة وتقديس الله أمام الشعوب".

فهذه الكلمات لا تحتاج إلى إيضاح وهي تطلعنا بجلاء تام على العوامل الخارجية لهذا التحول المشار إليه، وغني عن البيان أن العبادة الإسلامية تدقق كثيرًا شديدًا في هذا الاغتسال.

وكن ذلك يشير إلى مدى تغلغل هذا التأثير الأجنبي، وبدافع من هذا التأثير لم يعد اليهود على عاتقهم أن يغتسلوا في حالة إذا ما وجد الماء فحسب، بل أصبح الغسل بعد ذلك شرطًا تبطل الصلاة بدونه. وقرر الحبر هائي الجاءون أن

المجانب الذي ليس لديه ماء – لا يصلي. ويدلل على ذلك بقول " ونحن نتذكر عدة سبوت كنا نصلي عند الحبر هارون الجاءون – تبارك ذكره – في بيته بينما هو قاعد عن الصلاة حتى الغروب " وفي مصر ذهبوا إلى أبعد من ذلك بكثير فحرموا على المجانب مجرد الدخول إلى الكنيسة.

أن ما أمامنا تأثير من البيئة الأجنبية – وذلك ما يتضح من رسالة رامبام إلى الحبر فنحاس بن مشولم قاضي اليهود في مدينة الإسكندرية. ويجدر أن نعرض هنا خلاصة الرسالة بإيجاز لما لها من الأهمية من نواح عدة. فإن الحبر فنحاس يحمل إليه خبر المعارضة القوية التي تعرض لها رأيه المتهاون في هذا الاغتسال بين جمهور يهود الإسكندرية ويصف ذلك قائلاً " هب الناس من جميع الأنحاء وجاءوني قائلين : نحن لم نعد نحتمل أقوالكم فأنتم تحلون ما تشاءون وتحرمون ما تشاءون أليس هناك تقاليد أثرت عن أسلافنا ومن أتوا قبلنا تقضي بأن لا يقرب الإسرائيلي إلى الصلاة إذا كان مجانبًا حتى يغتسل في الحمام أو في البحر ويتطهر وينظف نفسه، والآن يجيزون الصلاة ودخول الكنيس وتلاوة التوراة دون اغتسال أو تطهر. إذا كان الدين كذلك فإنا ذاهبون كي نرفع أمرنا إلى القضاء ".

هذه الكلمات تنطوي على معان عدة وعلى وجه الخصوص الجملة الأخيرة التي نستطيع أن ندرك من خلالها واحدة من التفصيلات المهمة والشائعة في القضية المعروضة أمامنا : لقد هدد المعارضون أولئك الذي يتساهلون في هذا الاغتسال بأن يشوا بهم لدى السلطات العربية الإسلامية لأنهم رأوا في الصلاة دون الاغتسال أمرًا منكرًا. فأنت ترى في هذا دلالة قاطعة على أن اكتراثهم لرأي العرب كان عاملاً له أهميته في هذا الشأن.

وقد أثارت كلمات الحبر فنحاس الآنفة الذكر غضب رامبام الذي أبدى استياءه منهم جدًا ثم أضاف إن الأمر ليس سوى عادة اتبعها اليهود في شنعار

والمغرب فقط، أما في إيطاليا وفرنسا وسائر الأقاليم الأخرى فإن هذه العادة لم تتبع. وكثيرًا ما يحدث أن يذهب شيوخ عظام وأحبار كبار إلى أسبانيا، وعندما يرون الناس يغتسلون من الجنابة يضحكون منهم ويقولون : تعلمتم نظافة العرب.. كل بني إسرائيل الذين بين العرب اعتادوا الاغتسال وأما الذين بين الوثنيين فلم يعتادوه.

وفي بغداد قوبل تخفيف رامبام بصدد الاغتسال بمعارضة من جانب أوساط معينة. وفي هذه الحالة أيضًا أصر الحبر موسى على رأيه ولم يحفل باستنكار الجمهور.

ومن المدهش – كما سبق أن أشرنا – أن موسى بن ميمون لم يستخلص نتيجة عملية من رأيه هذا، بل استمر يتبع العادة التي نحن بصددها، لأنها اكتسبت بمرور الأيام قداسة التقاليد، وهو يكتب هذا إلى فنحاس بن مشولم : " وهذا الفقير الذي قال عني أنني لا أغتسل من الجنابة كاذب. فلتشهد عليّ السموات والأرض التي لم أفعل ذلك أبدًا إلا بسبب مرضي. وكيف أغير عادتي وعادة آبائي بلا علة ودون تحريم " غير أن هذا الاعتراف بالمصدر الأجنبي لهذه العادة أدى إلى نتائج عملية بالنسبة لآخرين. ففي أيام ابنه إبراهيم حرم بعض الناس هذه العادة لأنها "تقليد للأمم"، وبينما اضطر موسى أن يحارب الذين يدققون في هذه العادة تدقيقًا زائدًا نجد ابنه إبراهيم قد اضطر أن يدافع عنها ضد أولئك الذين يحرمونها. وهذا ما قاله : وها أنذا أحذرك أن تعتمد في رأيك على ما يعتمدون عليه في رأيهم، أولئك الضالون المضلون، من أن في هذا ما يوجب منعه وذلك أن الأمم تفعله. فهذا وهم يضحك منه أقل الناس شأنًا.

ثالثًا : إلغاء صلاة السر

(أ)

رأينا في الفصل السابق الحبر موسى بن ميمون يكشف الحجب عن عادة كانت شائعة بين عدة أجيال قبله، وتبين أنها كانت محاكاة للبيئة الإسلامية. وسنراه في هذا الفصل يدخل بنفسه تعديلاً بالغ الأهمية على نظام الصلاة التقليدية - تحت تأثير تلك البيئة ذاتها - ذلك التعديل الذي دام أكثر من ٣٠ سنة حتى صدر قرار رئيس الطائفة اليهودية بعد إبراهيم بن موسى فأماط اللثام عند الدوافع الخارجية الكامنة في أساسه - ثم ألغاه.

وكان إصلاح الحبر موسى يتلخص في إلغاء صلاة الهمس وأن يصلي الجمهور والإمام صلاة واحدة سويًا بدلاً منها، ومن المؤكد أن هذا التعديل ذو طابع إصلاحي، وبصرف النظر عن أن هذا التعديل جاء ليستأصل عادة عتيقة اكتسبت قداسة بمرور الأجيال ورسمت كذلك خطًا مميزًا للصلاة الإسرائيلية فإن به نقضًا صريحًا لشريعة التلمود.

وكي نستطيع تقدير التطرف في هذا الإصلاح كما ينبغي يحسن أن نقارنه بموقف الجاءونيم من هذه المسألة، فقد أثيرت هذه المشكلة أمامهم في مناسبتين وكان وراء كليهما أسباب داخلية تتصل باحتياجات الجمهور، الذين كانوا بالتأكيد لا يطالبون بالإلغاء التام لصلاة السر، بل بالتخفف المؤقت منها، وعلى الرغم من ذلك لم يتهاون الجاءونيم في المحافظة على المشروع والمألوف - فلم يسمحوا بذلك.

(ب)

لكن ما هي الدوافع التي شجعت موسى بن ميمون على اتخاذ مثل هذه الخطوة المتطرفة ؟

للإجابة على هذا يحدثنا موسى بن ميمون نفسه صراحة فيقول :

" والذي دعا إلى هذا النظام هو عدم التفات الشعب إلى الإمام ساعة الصلاة بل يتحدث كل منهم إلى جاره أو يخرجوا بينما هو يبارك تقريبًا دون جدوى إذ ليس هناك من يسمع، وعندما يرى الأحداث من المتعلمين غيرهم يتجاذبون أطراف الحديث ويبصقون بلغمهم ويسلكون أثناء الصلاة سلوك من لا يصلي – يفعلون أيضًا مثلهم، ويثبت في قلوبهم أن الصلاة لا تكون إلا في وقت الهمس ". وفي إجابة أخرى : " ولهذا أقول إن هذا واجب في زماننا لسبب سأوضحه : وهو أن الإمام عندما يعود ليصلي بصوت مرتفع نجد كل من يصلي وأنجز واجبه يستدير ليثرثر مع رفيقه أو ليحادثه حديثًا سريًا ويحول وجهه عن الشرق ويبصق بلغمه وعندما يراه رفيقه من الأحداث يفعل هو أيضًا ذلك دون شك. ويظن أن ما قاله الإمام لا يعتمد عليه. وإذا كان الأمر كذلك فسيخرج جميع الأحداث وهم لم ينجزوا واجبهم ويبطل الغرض الذي من أجله يكرر الإمام الصلاة. وفي الحق عندما لا يصلي الجمهور في همس أبدًا بل يصلي الجميع بعد الإمام صلاة واحدة في قدسية، فكل من يعرف الصلاة يصلي معه في همس والأحداث يسمعون ويركعون جميعهم مع الإمام وكل الشعب متجه إلى الهيكل – ينجز كل فرحته ويسير الأمر على ما يرام ويمتنع التكرار الطويل ويزول تدنيس اسم الله فقد شاع بين الأمم أن اليهود يبصقون ويثرثرون في صلاتهم ويشاهدون ذلك دائما. وهذا هو الصحيح في نظري في مثل هذه الأزمان لما ذكرت من أسباب ".

وكلماته تشتمل على تعليلين : الأول داخلي والآخر خارجي. وهما الخوف من بطلان الصلاة تقريبًا، ثم تدنيس اسم الله بين الأمم. ونرى مركز الثقل يكمن في السبب الخارجي الذي هو الأساس، ويتضح هذا من إجابة أخرى للميموني لا يذكر فيها سوى هذا السبب هذا ملخصها :

" على الرغم من أن ذلك هو ما تقول به الجمارا، فإن اليهود في أقاليم العرب – الذين يدققون في أن يتوقف الشخص أو يبصق أو يتحدث أثناء الصلاة – بسبب أنهم أسروا بصلاتهم وقاموا بواجبهم، يتحادثون ويتوقفون أثناء تكرار الإمام لصلاة الجهر وقد ساءت سمعتنا بين الأمم لهذا ..".

يتضح لنا عمل الميموني هذا بصورة واضحة إذا ما وازنا بين نظام المسلمين وما شاع بين اليهود. فالصلاة عند المسلمين تمتاز بتنظيم نموذجي ونظام عسكري حقًا؛ فعلى المصلي المسلم أن يمتنع تمامًا عن أي انحراف عن الوضع الجسمي المطالب به، ومن أقل حركة لا تتبع الحركات المتصلة بالعبادة، بل من زيغ العينين وشرود الذهن. ومفيد في هذه الناحية أن نذكر تلك الإجازة التي منحها لليهود عدد من علمائهم بأن ينحرفوا قليلاً مرات ثلاثًا عن الوضع الجسمي المفروض.

ولما كان الميموني قد نظر إلى الحالة في الكنيس من خلال مرآة المسلمين وقاس الأمور بمقياسهم، ولما كان خائفًا مما ستقوله الشعوب فقد رأى نفسه يوصي ويعمل بنفسه من أجل القضاء على هذه الحالة بأي طريقة حتى ولو كان القضاء عليها يتصل بنقض الشريعة.

(م)

سرى مفعول إصلاح الحبر موسى بن ميمون في أيامه غير أنه أثار معارضة يسيرة. وبقى في مصر وفلسطين وسوريا معمولاً به حتى القرن ١٦م. ومن المؤكد أن الذي دعا إلى ذلك هو السلطة الكبيرة التي تمتع بها المصلح. وفي الواقع عندما حبذ ابنه الحبر إبراهيم الاستمرار في هذا الاتجاه بإدخال الإصلاحات الأخرى قوبل بالمعارضة الشديدة من جانب الأحبار المعاصرين له فليس حسده لأبيه العظيم دون سبب وهاك كلماته :

"ولم يخرج عليه (تبارك ذكره) واحد من أحبار عصره في ذلك مع كونه خالف نص التلمود لأنه لم يكن بينهم حينئذ عناد ولا حسد ولا كان يتعرض للإفتاء مقصرون في العلم وأرباب أهوية كما حدث الاعتداء في عصرنا من المخالفين على ما تنبنا إليه من المصالح الكبرى والمندوبات والواجبات العظمى[1]".

وكما ذكرنا من قبل، ألغى الإصلاح تمامًا الحبر الذي تولى الرئاسة بعد إبراهيم بن موسى. ومن الأمور الشائقة قراءة تعليق هذا الحبر على شدة اكتراث الحبر موسى الميموني برأي المسلمين وكيف قضى على نفسه بهذا الاكتراث وهو يقول ما خلاصته: لقد زال السبب الذي جعل الميموني يكتب بأن هناك تدنيسًا لاسم الله بن نحن الآن أسوأ من ذلك كثيرًا في نظر الأجانب الذين يظنون أن صلاتنا كفر وأننا قد غيرنا توراتنا وبدلناها، فلم لا نصنع ما نحن ملزمون به غير آبهين بما يقال ؟

---

(١) هذه هي كلمات الحبر إبراهيم بن موسى نفسه، فقد قالها بالعربية كما هي الآن، وجاءت في بحث المؤلف بالحروف العبرية، وكل ما فعلناه هو نقلها من الحروف العبرية إلى الحروف العربية (المترجم).

رابعاً : إصلاحات الحسيديين[1] في الصلاة

(أ)

الإصلاح النسكي ودوافعه

إن الغاية التي تضمنتها إصلاحات الميموني استمر تحقيقها - وبصورة متطرفة - في مجموعة الإصلاحات التي أدخلها ابنه الحبر إبراهيم على نظم الصلاة المتفق عليها. ومما لا شك فيه أن مثل هذا الإقدام وذلك الحزم الذي لا يشوبه وجل - وهو ما تميزت به خطوة الأب الجريئة - كان للابن بمثابة قدوة يحتذيها كما كان يمده بالتشجيع في صراعه من أجل تحسين شعائر الصلاة.

وعلينا أن نقرر من البداية أن الأنظمة الحديثة التي أسسها الحبر إبراهيم الميموني قد نقلت من المسجد إلى الكنيس، وأن فيها ما يعد تطاولاً جوهريًا على نظم الصلاة التقليدية وملاءمتها شعائر العبادة الإسلامية. وهذه الأنظمة هي :

أ - السجود.

ب- الجلوس على هيئة البارك.

ج - استقبال القبلة وقت الجلوس أيضًا.

د - وقوف المصلين في صفوف.

هـ- بسط اليدين.

---

(1) الحسيد لقب عبري أطلق على جماعة من شيوخ الديانة اليهودية عرفوا بالورع البالغ والزهد الشديد والصلوات، وأنسب ترجمة عربية لها هي " النساك " وقد أخذت العبادة عندهم المقام الأول، لا الدراسة والبحث، ولا الفلسفة، وقد شاعت هذه الحركة بين اليهود المغتربين وخاصة في شرق أوربا. وامتدت من القرون الوسطى إلى بداية العصر الحديث.
وانظر : The Jews... I.pp 392-8 (الجرح).

وليست هذه كلها سوى تعديلات تتسم بطابع الإصلاح. غير أن الحبر إبراهيم الميموني لم ير نفسه مصلحًا مجددًا بل باعثًا لعادات قديمة فليس ما يقوم به إصلاحًا reformation وإنما هو بعث وإحياء restoration[1].

وقبل أن نخص كل واحدة من هذه الإصلاحات بالحديث المفصل، علينا أن نقف على الأفكار والأهداف التي بعثت على هذه الإصلاحات واستقرت أساسًا لها.

لقد تكاتفت عوامل شتى لتنتهي إلى اتجاه واحد : رد فعل الآراء الإسلامية في العبادة والخوف على وقار بني إسرائيل ودينهم، وهذان الاعتباران هما اللذان دفعا موسى الميموني إلى الإصلاح، وكانا دافعين هامين بالنسبة لابنه. وليس هذا فحسب بل في مقدورنا أن نقول إن تأثير رد الفعل القوى هذا كان أعنف في قوة التأثير عليه من أبيه؛ لأنه كانت تربطه بالنساك المسلمين قرابة روحية، فلا شك أنه اتصل بهم اتصالًا وثيقًا وأعظمهم وأكن لهم ولعاداتهم السلوكية كل الاحترام، وقد أدى به ذلك إلى إنعام النظر في آرائهم. وسوف نجد مفتاحًا هامًا لفهم روح إبراهيم الميموني في أقواله التي سنوردها فيها بعد[2].

ونلمس في أقواله أنه كانت تثقل على نفسه فكرة أن العادات الرائعة التي تمسك بها " الأنبياء والقديسون والإسرائيليون القدامى " قد هجرت وانتقلت إلى حوزة الأجانب. وهو لم يرفى إصلاحاته تقليدًا لما يفعله الأجانب بل " استردادًا للتراث الديني الذي فقده شعبنا من جراء النفي ".

---

(1) استعمل الباحث هذه الكلمات الأوربية معبرنة دون تغيير يذكر في النطق (الجرح).

(2) انظر آخر الفقرة التي حررها الباحث عن إبراهيم الميموني في رابعًا : ج ، حيث يؤكد إبراهيم الميموني إعجابه بمتصوفة المسلمين، وينوح على كبرياء بني إسرائيل التي أخذت منهم وأعطيت لأمم العالم (الجرح).

ونلمس مظاهر هذا الاتجاه الحاسم في حركة التنسك التي عنى بـــها الحـبر إبراهيم الميموني وزميله الحبر إبراهيم الحسيد. ولا شك أن التنســـك فـــي فكرتـــه الأخلاقية الدينية وفي صورته الخارجية مجلوب من الخارج ولكننا هنا نقف علـــى ظاهرة هامة ومثيرة في تاريخ ثقافتنا الدينية في القرون الوســـطى، فلقـد ثبـت أن التنسك الاشكنازي الذي أسسه الحبر يهوذا الحسيد، مأخوذ من البيئـــة النصرانيـة ومرتبط بها، إذ أن الرهبان النصرانيين كانوا بمثابة قدوة للنساك الاشكنازيين الذيـن تأثروا بتعاليمهم وطرائقهم[1].

ونلمح هذا المنوال نفسه وبوضوح أشد في الشرق، فالنســـك الشـــرقي نتـــاج مدرسة إبراهيم الميموني وزميله الحبر إبراهيم الحسيد. وجذوره مستمدة من البيئـــة الإسلامية،ومتأثر بالمتصوفة المسلمين.

(ب)

الحبر إبراهيم الحسيد

إن شخصية هذا الرجل ما زال يكتنفها الغموض. ولكنا ســـنحاول أن نرســـم بعض ملامحها. فإلى الآن لا نعرف عنه سوى ما ذكره إبراهيم الميموني في تأليفه. ومن خلالها نستنتج أن ما ربط بينهما هو الفهم المشترك للعالم. ففي ذلك القسم مـــن مؤلفه الكبير " كفاية العابدين[2] " الذي يعرض فيه إبراهيم الميموني آراءه في الديـن والأخلاقيات نجده يغض النظر عن نقله فيه عن أبيه ويعترف مرة واحدة بأخذه عـن

---

(1) كان يطلق لفظ أشكنازيم على يهودي ألمانيا وما يجاورها من الأقاليم المسيحية، ويقابله لفـظ سفارديم الذي كان يطلق على يهود إسبانيا وبلاد البحر المتوسط وهي إسلامية (الجرح).

(2) انظر : س. روزنبلات : سبل الكلمات لإبراهيـــم الميمونـــي نيويـــورك وبلتيمـــور ١٩٣٨ (بالإنجليزية).

كتاب "فرائض القلوب" دون أن يذكر أي مصدر من مصادر القرون الوسطى - وذلك يستشهد بالحبر إبراهيم الحسيد خمس مرات ..وهو يدعوه "صاحبنا في طريق الله" ومعنى هذه الكلمات بيّن لا يتطرق إليه شك[٢]. فما ترمى إليه هو أن كليهما شاركا في السير معًا في طريق التنسك وفي اتجاههما الصوفي، وفي محاولة إدخال الإصلاحات النسكية التي سنتناولها بالبحث فيما بعد. ويعرف طريق النسك حسب تعاليم الصوفية (التي تتطلب استعدادات عديدة وانتقالا تدريجيًا من حالة روحية إلى التي تليها ومن مقامة إلى أخرى حتى يتم إدراك الغاية العليا) عند الحبر إبراهيم بن ميمون باسم "طريق الله" وكذلك يطلق عليها ناسك يهودي متصوف مجهول الاسم أيضًا مصطلح "سبيل الله" أو يستخدم الاسمين معًا "طريق الله وسبيله" وفي الواقع، هذا التعبير "طريق الله" الوارد عدة مرات في الكتاب المقدس والذي استخدمه المذكوران بلفظه العبري (DRKH) في النص العربي لدينا - ليس أصيلاً عندهم . بل هو منحول من مدارس العلماء المسلمين. فإن الغزالي، على سبيل المثال، يعرف المتصوفين بأنهم أولئك الذي يسيرون في طريق الله.

من هو الحبر إبراهيم هذا : إن إبراهيم الميموني يذكره دوامًا بصفة "الناسك" ليس غير ويخفي اسم أبيه. والمحاولات التي قام بها شتاين شنيدر وجاكوب مان لا تتعدى فروضًا يداخلها الريب. ولكننا الآن نجحنا في أن نجلو اسمه كاملاً وفي الوقت نفسه توصلنا إلى ذكره وبقية يسيرة من تأليفه في مصدر مستقل عن كتب

---

(١) في نسخة مخطوطة ليننجراد (صاحبنا) وفي نسخة مخطوطة اكسفورد (صاحبي).

(٢) الفرض زوتبلات في مقدمته ص٥٤ أن نعته بصاحبي يدل على أن إبراهيم الحسيد كان رسولاً لابراهيم الميموني في الحكمة وعندما وجد في نسخة مخطوطة ليننجراد صاحبنا في طريق الله رأى في ذلك تعضيدًا لفرضه وفي الواقع هذا دليل ينفي فرضه.

إبراهيم الميموني. أما اسمه فهو إبراهيم بن أبي الربيع وهو موجود في إحدى قطع الجنيزة في اكسفورد[1] والقطعة تشتمل على ورقة واحدة ممزقة وبها بقع وهذا ما سلم منها. يقول الكاتب في الصفحة الأولى :

" نبتدئ بعون البارئ بذكر التعليق الذي وجد بخط الكاهن العظيم البار سيدنا وحبرنا إبراهيم الحسيد بن أبي الربيع كرم الله وجهه وهو نسختين إحداهما في معنى كشف الغيب والإخبار به والثاني في ذكر معنى من نشيد الأناشيد وأيضًا في المعنى لتكن لك وحدك وليس لأجانب معك[2] :

بسم الله رب العالمين

إبراهيم الحسيد

عرفني الطريق التي أسلكها فقد رفعت إليك نفسي[3].

أعلم أن الشخص الإنساني يرا (د) ....

والارتقاء إلى العالم الروحاني وطلب الوصول إلى عالم الملكوت الرباني بتظهير النفس وتدريجها إلى المعالي وتسلسلت النفس وتصاعدت في ارتياد المحاسن واكتساب الفضائل مما يقطع الحجب الحائلة بينه وبين عالم الروحانيين.. عليه بباب .. شف وتشرق عليه أنوار العالم القدسي .. للسماء المطهر في صحبة أهله ملائكته تعالى ويبين له عجائب مخلوقاته .. أوراد مصنوعاته.

---

(1) رقم ٢٨٦٢/٧ مخطوطات عبرية.

(2) أمثال ٥ : ١٧.

(3) مزامير ١٤٣ : ٨.

قال في ذلك انفتحت السماوات يعني انفتحت عن الحجب[1] ".

ومن حسن الحظ أنه قد حفظت لنا السطور القليلة التي بقيت في هذه القطعة الثمينة فكان ذلك كافيًا لأن نقف على النبع الذي استقى منه الحبر إبراهيم الميموني بعض تعاليمه. فهي تشتمل على مقالين اتسمتا بجلاء بطابع الصوفية: المقالة الأولى عن كشف الغيب، والإشراق الروحاني، وهي فكرة رئيسية في التصوف، فعندما يصل المتصوف إلى قمة السلم الصوفي تكشف أمامه الأسرار الإلهية وخفايا المخلوقات ويتكشف الوجود لعينيه[2]. وهو ينال هذه الحالة بطريق الإشراق الإلهي بأنوار العالم القدسي. ومن الواضح جدًا أن هذه المقالة عن كشف الغيب هي المصدر الذي نقل عنه الاستشهاد المطول في تفسير إبراهيم الميموني للتوراة، الذي يمكن أن ينسب إلى إبراهيم الحسيد. وهو يتحدث عن كشف العوالم الروحانية للأنبياء ومن اصطفاهم الله حسب درجاتهم المتباينة.

ولما كان من الواضح تأثره بتعاليم الصوفية فإنه يليق بنا أن نذكر أن آية عنوان الطريق التي أسلكها " التي يستهل بها مقاله هذا تشير إلى ذلك بوضوح فكلمة الطريق من الاصطلاحات الأساسية في التصوف. وقد أشرنا آنفًا إلى اصطلاح " طريق الله ". ويستهل ذلك الناسك المجهول أيضًا كتابه الذي قصد به أن

---

(١) نص الجنيزة باللغة العربية بصفة رئيسية، ولكنها محررة بحروف عبرية، ويتخللها بعض الألفاظ العبرية أو الآرامية، وليتضح ذلك هنا وضعنا خطًا تحت ترجمتها، وأما الباقي غير المقتبس لا دخل لنا إلى في نقل حروفه من العبرية إلى العربية دون أن تغير حتى الأخطاء النحوية (الجرح).

(٢) انظر: M. Smith : Studies in Early Mysticism p. 252.

يكون " هاديًا إلى طريق النسك الحقيقي " بآية مماثلة " يـــا رب عرفنـــي طرقـــك علمني سبيلك "[1].

وموضوع المقالة الثانية أن نشيد الأناشيد لم يحظ بالاهتمام أبدًا ففي الواقـــع لا يوجد ما يفضله في إفاضة الحديث عن المرحلة العليا في سلم النظم الدينية بحســـب تعاليم الصوفية : حب الله. وهنا نستند إلى ذلك الناسك المجهول الذي يؤكـــد عـــدة مرات أن ما يقصد إليه نشيد الأناشيد أساسًا هو وصف الأحوال والمقامات المختلفـــة في طريق الله حتى بلوغ الغاية المنشودة[2].

ويتضح التأثير الصوفي أكثر من ذلك فيما بقى من شواهد في كتب إبراهيـــم الميموني. غير أن ما نخصه بالاهتمام هنا ليس التأثير في ميدان الفكر الصوفي بـــل هو إعجاب الحبر إبراهيم الحسيد بسلوك النساك المسلمين الظاهري كذلـــك. فـــهو يعظم الزهد ويوضح أن من جراء ذلك اختارت التوراة لفظه (كرم) في آية " تكـــرم الفقير في دعواه"[3] ولم تقل (أشفق على) أو (ترفق بـــ) كي تعلمنا أن علينا تكريـــم الزاهد خارج جدران دور القضاء كما نكرم " كبار الأحبار ". وهذا التفسير مفيد من عدة جوانب فبالإضافة إلى جوهر الفكرة الكامن في ذهنه فإن تفسيره يرجـــع إلـــى اللغة العربية التي يستعمل فيها لفظ (فقير) للدلالة على الزاهد. ومرة أخرى نســـمع في طلبه تكريم الزاهد صدى قويا ومدويا يدل على أنه في هذه الحقبة – كمـــا هـــو الحال في فترات نشوء حركات تنسك أخرى – وقع انقسام بيـــن النســـاك الذيـــن لا يملكون سوى كبح جماح أنفسهم وورعهم، والعلماء المتسلطين على الجماعات الذين

---

(1) مزامير ٢٥ : ٣.

(2) يميل النقاد المحدثون إلى اعتبار نشيد الإنشاد من قبيل الغزل الحقيقي لا الرمز الصوفي، ولنـــا بحث بعنوان " نشيد الإنشاد بين الغزل والتصوف " نأمل أن ينشر قريبا (الجرح).

(3) خروج ٢٣ : ٣.

الآخرون بمقدار عملهم. وهذا الانقسام هو انعكاس للحاجز الذي فصل بين المتصوفة وأرباب الثقافات من المسلمين.

وقد وجد بعد لأي أن العزلة في الأماكن المعتمة التي اعتادتها الصوفية قد سبق إليها العهد القديم في أشعيا ٥٠ : ١٠ "من منكم خائف وسامع لصوت ربه. التي يسلك في الظلمات ولا نور له ؟" أما تعودهم ارتداء الثياب الرثة المرقعة فقد كان شائعًا بين الأنبياء السابقين وله أسسه في حزقيال ١٠ :٣،٧[١].

ويلوح أنه كان يشتغل بصناعة الطب كصديقه الحبر إبراهيم الميموني. ويحق لنا استنتاج ذلك من قائمة كتبه التي بيعت بعد موته في حضرة إبراهيم الميموني. فبينما كانت ٣٥ مجلدًا منها تتناول علوم اليهودية كان هناك ٧٥ مجلدًا تختص بالعلوم الدنيوية وأغلب هذه المجلدات في الطب. ثم يبدو أنه كان يشغل وظيفة رسمية محترمة بين طائفته. وإذا عرفت أنه فيما يتصل بطلبه أن يجلس الشيوخ في الكنيس مستقبلين القبلة قد نوه به إبراهيم الميموني قائلاً : "وعلى ذلك اعتمدنا الحبر إبراهيم الحسيد" – تعرف أنه عد كذلك من بين الشيوخ الذين شملهم حكم التوسفتا[٢].

وكان الحبر إبراهيم هذا، بالاشتراك مع الحبر إبراهيم الميموني زعيم فرقة النساك في زمانه. ولهذا لم ترفق صفة الحسيد باسمه إلى حد إسقاط اسم أبيه تمامًا بل أكثر من هذا تكنيته باسم الحسيد ليس غير. ويحق لنا أن نفرض تأكيد اشتراكه في إدخال الإصلاحات النسكية. وفي الواقع يذكره إبراهيم الميموني

---

(١) كل ما جاء في هذه الآيات هو الحديث عن "الرجل اللابس الكتان" دون أي إشارة إلى رثاثة أو ترقيع (الجرح).

(٢) كلمة آرامية تعني : ذيل أو ملحق للمشنا أي الأحكام التي تلحق بالمشنا وليست منها وإنما هي من تعقيبات جماعة التنائيم الذين سبق أن عرفنا بهم (الجرح).

مرتين في هذا الشأن بجلاء، فبالإضافة إلى موضوع استقبال القبلة الـــذي أوردنـــاه آنفًا فهو يذكره في أمر الوقوف في أركان خاصة من الصلاة. بقوله : والذي شـــرع في هذا كان الحبر إبراهيم الحسيد.

وما نصبوا إليه الآن بعد أن عرفنا اسمه الكامل أن ينجح الباحثون في الكشف عن مادة جديدة تتصل به وبطائفته وأن يُلقوا ضوءًا جديدًا علـــى مســـألة التنســـك اليهودي في المشرق.

(ج)

الحبر إبراهيم الحسيد بن الميموني

لقب الحبر إبراهيم الميموني كذلك بالحسيد، وليس هذا نتيجة للخلط بينه وبيـــن صديقه الحبر إبراهيم بل لأن صفة النسك كانت أكثر ملاءمـــة لـــه مـــن الصفـــات الأخرى ويمكننا القول بأن (الحسيد) تعكس صورته الروحية بدرجة أوفر دقة مـــن لقب فيلسوف الذي أطلق على أبيه؛ لأن من يقول " فيلسوف " يراعى"تثنية التـوراة " الذي يتساوى – على الأقل – في الأهمية والوزن مع كتاب " المعلم " بل إنه أثقـــل منه وزنًا. فموسى ليس ناسكًا إذا قورن بابنه إبراهيم. والنسك وحده هو الذي يحـــدد طبيعة الجانب الروحاني لإبراهيم الميموني.

وقد وقف روزنبلات من قبل على التأثير الصوفي البالغ الأثر علـــى تفكـــير إبراهيم الميموني الديني – الأخلاقي، ولسنا بحاجة إلى إعادة هذا القول هنا. أما مـــا يهمنا فهو أن نجدد في إيجاز تأثر آرائه بالصوفية بصورة واضحة جلية وبدرجـــة لا نعثر على مثلها عند الأحبار الإسرائيليين الآخرين. وأبرز الشواهد على ذلـــك هـــو مؤلفه "كفاية العابدين" الذي اصطبغ بصبغة الصوفية في محتوياته وفي لغته.

على أن ما يعطى لموضوعنا أهمية خاصة هو أن الحبر إبراهيم الميموني صاحب إبراهيم الحسيد قد أعظم شأن المتصوفة، وبالغ في الإعجاب بطوائفهم فهو يثني عليهم مرات عدة وينبه إلى أنهم هم الذين حافظوا على عادات الأنبياء وهم الذين يتأثرون خطاهم وليس اليهود. وهكذا كتب يقول : " المتصوفة المسلمون الذين يتبعون عادات القديسين الإسرائيليين القدامى، وهو مالا يوجد أو يوجد لدى المتأخرين " يشير إلى تعودهم ارتداء الثياب والأسمال البالية، وإلى عادتهم الارتزاق من الصدقات وما تلقى به إليهم الصدف، وإلى قاعدة الشيخ والمريد وإلى عادة الشيخ إلباس المريد المبتدئ خرقة عندما يستعد لسلوك طريق النسك. وهو يطرى عزلتهم في أماكن معتمة ويشيد بصراعهم مع النوم وسهرهم الليلي ويقول كل هذه عادات أنبياء بني إسرائيل القديمة. وهو يعبر عن حزنه لتركنا هذه العادات بهذه الكلمات، " تأمل هذه العادات العجيبة وتحسر عن انتقالها من عندنا، وظهورها في شعب غير شعبنا وغيابها عنا مع أنهم رضي الله عنهم يقلدون في مثل هذا عند شرحهم آية " وإن لم تسمعوا ذلك فإن نفسي تبكي في الستر مستترة من أجل الكبرياء " : من أجل أي كبرياء ؟ من أجل كبرياء بني إسرائيل التي أخذت منهم وأعطيت لأمم العالم ".

(د)

نساك الشرق

ذكرنا أن الحبرين إبراهيم الميموني وإبراهيم الحسيد كانا قائدين لحركة نسكية ومازال لزامًا علينا أن نثبت قيام فرقة نسكية حقيقية في القرون الوسطى.

١- من المستطاع استنتاج هذا الأمر في الملاحظة التي أوردناها آنفًا : "المتصوفة المسلمون هم الذين يتبعون عادات القديسين الإسرائيليين

القدامى وهو مالا يوجد أو يندر وجوده لدى المتـــأخرين ". فلنقـــل إن طرق الصوفيين وجدت من يشقها في أوساط معينة في عصر إبراهيـــم الميموني.

٢- عندما تحدث إبراهيم الميموني عمن يرشدون الأحداث قال : " يحتمـــل أن يكون المخصص لإرشاد غيره في إحدى حالين : إمـــا أن يكـــون المسترشد رجلاً ينشد طريق النسك وهو معد لها فمرشـــده يقـــود فـــي طريق النسك من ينشده، وإما أن يكون المسترشدون طائفة تشتمل على رجال مختلفة أحوالهم متباينة غاياتهم فمثله كملك إســـرائيل أو رئيـــس جالية أو رئيس مدرسة دينية أو قضاة إسرائيل وموظفيها ". فمـــا هـــي شخصية ذلك الذي " يقود الناس في طريق النسك " الذي يسويه إبراهيم الميموني بقادة اليهودية الرسميين ؟ هذا الأمر يفهم في ضوء الصوفية: فإن أحد الأسس الرئيسية في التصوف هو أساس الشيخ والمريد الـــذي ألمعنا إليه آنفًا. فمن يجد في إدراك الغاية الخفية يحتاج إلـــى توجيـــه معلم ومؤدب يرشده في طريقه ويسدي إليه النصح. ومن هنا نســـتنتج أن مثل هؤلاء من الهادين إلى طريق النسك كانوا كثيرين في عصـــر إبراهيم الميموني.

٣- ننبه أيضًا إلى كلماته المؤكدة هنا : " لنفرض أنك تتبع أولئـــك الذيـــن ينزعون إلى ملذات الطعام وعادتك هي أكل أذواق مختلفة في وجبـــة واحدة كعادة المترفين من الناس. ثم شئت بعد ذلـــك أن تتحـــول إلـــى طريق القديسين الذين شاهدتهم أو الأنبياء الذين سمعت عنهم ".

٤- يقينا، تتضمن كلمات إبراهيم الميموني التالية دليلاً قاطعًا على نشـــوء نساك متصوفين في إسرائيل " .... من أكبر الأخطاء أن يعتقد الإنســـان

في نفسه أو يعتقد الآخرون أنه ناسك وذلك لامتناعه عن الزواج أو لإكثاره من الصوم أو لإقلاله من الطعام أو لارتدائه الصوف في الوقت الذي يهمل فيه الوصايا ويزدريها أو يأتي المحرمات. ولكن الأمر كما قالوا " وليس أخو الجهالة بناسك "[١] لأن الجاهل يهمل ما لا يعرفه ويزدريه. وإذا كان جاهلاً كان هذا يعني ازدراء وصايا مدارسة التوراة التي هي أكثر الوصايا أهمية. ومن أقوال من عليك الاهتمام بأقواله : إن صلوات النفل ونحوها تدخل في نطاق الهدية المجانية على حين أن تأدية الفروض يندرج تحت سداد الدين والدائن لا يقبل الهدية ويترك دينه. وأقول إن هذا القول ناتج من قول التوراة في صفاته تعالى : ولا يقبل رشوة[٢] ". واستنكاراً لهذا الخطأ الفاحش والغلط العظيم الناتج عن الانشغال بالطريق الخاصة وإهمال الطريق العامة، والتطلع إلى الوصول بهذه الطريقة قال تعالى على لسان نبيه[٣]: " ناد بصوت عال لا تمسك، ارفع صوتك كبوق، أخبر شعبي بتعديهم (للحدود) وبيت يعقوب أوزارهم. إياي يطلبون في كل يوم ويبتهجون بمعرفة طرقي كأمة صنعت برّا لم تترك قضاء إلهها يسألونني عن أحكام البر. يبتهجون بالتقرب إلى الله ". وأنت يا من تنشد الارتفاع إلى مرتبة الأصفياء والسير في طرق الله الخاصة التي هي طريق نساك إسرائيل وأبناء الأنبياء إذا أردت أن تمضي في الطريق التي تريدها أمامه تعالى وأن يشد أزرك لتصل إلى غايتك،

---

(١) [illegible] الآباء ١ : ٦.

(٢) تثنية ١٠ : ١٧.

(٣) إشعيا ٥٨ : ١-٢.

كما قالوا : " من يأتي للتطهر نشد أزره " فابدأ بالطريق العامة الواضحة ونفذها بحذافيرها ولا تهمل شيئًا مما أنت به ملزم ثم بعد ذلك ثن بالطريق الخاصة وأعلم أن تناولك وجبة واحدة من سرقة أو نهب تفسد صوم عشر سنوات في النسك وإذا لبست عباءة يقضي الفرض بأن تكون ذات أهداب ولم تكن كذلك فأنت قد أفسدت لبسك للصوف طوال سني حياتك بقصد الزهد. وبجلوسك في دار يلزمها عضاءة باب وكانت بدونها فأنت تضيع عزلتك في الجبال على مر السنين. والله إذا حدث هذا لك عفوًا أو قهرًا فهناك أمل لديك في المغفرة على ما كان وفي عون الله وحفظه فيما هو آت "[1].

نستنتج من هذه الفقرة أنه وجد في إسرائيل نساك لبسوا الصوف[2] ومارسوا إيلام النفس ولم يتخذوا لهم زوجًا، خلوا إلى الجبال وأكثروا من صلوات النفل كما فعل الصوفيون. ومن جانب آخر لم يكن هؤلاء النساك حذرين في تنفيذ الوصايا العملية بل كانوا أميين جهالا. ويخطر لنا سؤال : أليس الزهد وإيلام النفس من ناحية وإهمال وصايا التوراة من ناحية أخرى هو الجمع بين النقيضين ؟ إن هذه الأمور تتضح في ضوء الإسلام فمن المعروف أن الصوفيين قد أدى بهم إيثارهم "فرائض القلوب" على " فراض الأعضاء " إلى التقليل من أهمية الشعائر الإسلامية فأعطوها قيمة تعليمية فحسب، وأدت بهم وجهة النظر هذه إلى التخلص من "فرائض الأعضاء" وإلى كل الموروث بل وأحيانًا إلى الكفر به الأمر الذي كان

---

(1) طبعة زوزنبلات جـ١ ، ٢٠ - ١٤٨.

(2) ثوب الصوف من مميزات النساك المسلمين ومن هناك جاءت كنية " صوفي " وتأثر حبرنا بهم أيضًا في هذا، وهو يلمح في عدة مواطن إلى أن هذه العادة مأخوذة من الأنبياء الإسرائيليين.

جليًا في الصدام بين الحركة الصوفية والمتمسكين بالدين(١). وبرز الخلاف واضحًا إلى شيء آخر : في تقييم تعليم الشرائع والأحكام، فقد عامل الصوفيون المثقفين [illegible] بالدين والأحكام بإهمال واحتقار(٢) وكأن البحوث والتنقيبات في القرآن والحديث التي اشتغل بها هؤلاء كانت إسرافًا روحيًا فهي لا تجدي في تعميق الإحساس الديني(٣). ونقف – من خلال كلمات إبراهيم الميموني المذكور آنفًا – على هذه الظاهرة المثيرة وهي أن نساك إسرائيل في ذلك العصر كانوا عرضة أيضًا لاتجاهات الصوفيين السلبية، فهم مثلهم قد أغفلوا الوصايا وتركوا مدارسة التوراة وعناهم إبراهيم الميموني بزجره وتأنيبه ووجه إليهم انتقاده اللاذع. ونرى [illegible] أن إبراهيم الميموني لما انخرط في سلك النسك الصوفي وأصبح المدافع [illegible] الأدبي الرئيسي وجه عنايته إلى تطهيره وتنقيته من الأسس التي تتعارض مع الشريعة اليهودية. فكان نشاطه إذا موجها نحو كلا المعسكرين معًا؛ فضلًا عن أنه خرج ينشر مبدأ النسك بين المتدينين فقد حارب الآراء العفنة التي تسللت إلى دوائر النسك.

[illegible] الحسين بن منصور الحلاج المشهور بكل الفرائض والعوائد الإسلامية وأعدم في بغداد ٩٢٢م.

[illegible] هذا نجد تنديدا مرا بالصوفية يردد أنهم جهال ولا يعلمون الشريعة كما يجب [illegible] العلماء ويحقرونهم. انظر جولد تسهير 156 II Vorlesungen.

[illegible] المفيد أن الغزالي أيضا الذي كان فحل الشريعة الإسلامية في زمانه مزج بين التيارين [illegible] والصوفي فكان يرى أن دراسة الشريعة من علوم الدنيا ويقول بأنه من العسير حتى [illegible] تصور أن الدروس المتعلقة بشئون الطلاق والزواج والبيع والشراء ... الخ تعتبر [illegible] تعد الإنسان للدار الآخرة. وليس من يشتغل بها يريد التقرب إلى الله مجنون.

(هـ)

الصلاة وغايتها الصوفية

يعرض لنا سؤال بديهي إزاء إكبار إبراهيم الميموني لعادات الصوفيين : هل تجلي هذا الإكبار عمليًا في واقع حياته أم بقى نظريًا ؟ الواقع أنه ليس في مقدورنا أن نجيب عن هذا السؤال إجابة واضحة غير أننا نرى أن النظر العميق في تأليفه لا يدع مجالاً للشك في أن إبراهيم بن موسى الميموني يمكن أن يعد ممن ينهي عن شئ ثم يأتيه. ومن جانب آخر يحتمل جدًا أن مركزه الخاص بوصفه رئيس اليهود في مصر لم يمكنه من تطبيق مذهب الزهد بحذافيره لاسيما فيما يتصل بالسلوك الظاهري. أما المسلكان الرفيعان في طريق النسك : الاتضاع، وكبح جماح النفس اللذان يوجبان – كما يفهم من كلامه – عدة عادات ظاهرية، فقد لمس هو ذاته الصعوبات التي تعترض تحقيقهما بالنسبة للرجال الذين يأخذون على عاتقهم عبء الوظائف العامة ذوات المسئولية : كزعيم طائفة أو رئيس مدرسة دينية أو قاض في مدينة.

وإزاء ذلك فما من شك في أن إبراهيم الميموني نفذ مطالبه النسكية في محيط الصلاة بكل دقائقها. ومن المعقول أنه بدافع من وظيفته قد امتنع عن انتهاج عدد آخر من طرق النسك، ولكنه قام بالتعويض عن هذا التقصير في الصلاة، وهو ذاته يقول إن انشغاله عن هذه الطرق بغيرها يجعله في حاجة إلى تدريبات نسكية زائدة حتى يغطى النقص، فيقترح : صلوات النفل، سهر الليل، الإكثار من الركوع والسجود، والقراءة المتتالية في التوراة والأنبياء وملازمة من يخافون الله. ولهذا السبب أمر الملك في المشنا بأن يكون " راكعًا طول الصلاة منذ الركعة الأولى إلى

صلاته " بينما كان على الرجل من العامة أن يركع، بحسب الشريعة، ركعات ليس غير[1].

تتبع هذه الإصلاحات التي أدخلها على عادات الصلاة من وجهة نظر الأهمية والغاية منها. وهو هنا واقع تحت تأثير هذه الطائفة.

الصلاة أساس وحجر زاوية في أحكام المتصوفة. وقد جعل منها أوائل هذه العبادة الدينية وأعظموها عن سائر الأعمال الدينية الأخرى، فمطابقة نظرهم العامة حول أفضلية " التعبد بالقلب " على " التعبد بالأعضاء " لم عن تأكيد أن روح الصلاة هي القصد النقي الطاهر الذي يعني تآزر قوى حيا وإغراقها في حب الله وعبادته واجتهدوا في أن يجعلوا منها فرصة لأن فيها فصما لجميع الروابط مع العالم الخارجي، وهم يستخدمونها أداة غايتهم الصوفية وهي الانجذاب إلى الله[2]. لذا لم يجد هؤلاء المتصوفون الصلاة التقليدية وسيلتهم الدينية بل بحثوا عن طرق وصور جديدة للتعبد أكثر مع الفهم الصوفي ويكون من شأنها التعبير عن تجاربهم الدينية الخاصة.

Materialien Zur Entwicklungsgeschte des Sufismus W.Z.K.M. XIII
Vorlesnugen etc, 151-1.

قصص عجيبة تدور حول قوة تركيز المتصوفيين في الصلاة فيحكى مثلاً أن بعضًا كانوا يقولون لمن في دارهم إن استطاعتهم أن يتجاذبوا أطراف الحديث وأن يدقوا النوف. وكان استغراقهم إن في الصلاة عميقًا إلى الحد الذي لا تلتقط فيه آذانهم مثل الوضاء. أو بينما كان أحدهم يصلي في مسجد بالبصرة انهار عمود البناية ومعه بيت من أربعة طوابق. غير أنه استمر في صلاته، وعندما هنأه الناس بنجاته سأل : ما الذي

أمثلة أخرى في :

Nicholson : Studies in Islamic Mysticism, 60-1.

فلم يقيدوا عبادة الله بأوقات معلومة يوميًا، وأدخلوا صلوات نفل حرة يتحدث الناسك فيها إلى ربه من سويداء قلبه. وقد نموا على وجه الخصوص عبادة حديثة هي عبادة " الذكر " التي مارسوها دواما دون نظر إلى المكان أو الزمان، والتي لا تزال تشكل حتى الآن العبادة الأساسية للنساك المسلمين.

لقد تأثر إبراهيم الميموني بهذا الفكر الصوفي، ولنوجز هنا كلماته : لعبادة الله عدة درجات أرقاها التعبد الباطن أي بإخلاص النية والفكر فحسب. وهذه المرتبة في حب الله وعبادته لا تدرك في يسر، وحتى الأنبياء ومن سواهم لن يصلوا إليها في كل وقت ولن يرقى إليها سوى " الباقين الذين يدعوهم الله " الذين لا يلهون الفكر عنه تعالى حتى في حال نومهم وقيل عنهم " قولوا في قلوبكم على مضاجعكم "[٢].

والدرجة الثانية هي تعبد باطن القلب وتعبد ظاهر الأعضاء، وقيل عنها " فؤادي ولحمي يهتفان بك أيها الإله الحي "[٣]. والتعبد الخارجي بالأعضاء يكون بكلام اللسان فقط لأنه من فرط انشغال القلب يفيض في كل حال ومكان، وعن هذا يدور ما قيل " وتكلم بها حين تجلس في بيتك وحين تمشي في الطريق وحين تنام وحين تقوم "[٤]. على أن طرق التعبد هذه ميسورة للأصفياء ليس غير، ولذا لا تفرض على العامة.

---

(١) انظر يوئيل ٢ : ٣٢ حيث نجد نص الترجمة العربية " وبين الباقين من يدعون الرب " (الجرح).

(٢) انظر مزامير ٤ : ٥ حيث نجد الترجمة المتداولة " تكلموا في قلوبكم على مضاجعكم واسكتوا " (الجرح).

(٣) انظر مزامير ٨٤ : ٢ حيث تقرأ " قلبي ولحمي يهتان بالإله الحي " (الجرح).

(٤) تثنيه ٦ : ٧.

والدرجة الثالثة التعبد بأوضاع الجسم التعبدية. وأول المراتب السجود الــــذي [illegible] انبساط الجسم والجبهة على الأرض وهو أبرز صور التعبد الظـــاهر، ويليـــها [illegible] الأخرى : الركوع، فالوقوف ثم الجلوس على الرجلين.

وأهم ما في كلمات إبراهيم الميموني هو رأيه في الغاية من الصــــلاة، ففـــي [illegible] المصلي - عن طريق إخلاص النية وتطهير الفكر في الصلاة - أن يصل إلى [illegible] الوصول النبوي أو ما يشبه تلك الحال العظيمة التي يتوق إليــــها عــابد الله. [illegible] بصفة أساسية جهود حبرنا في إصلاح عـــادات الصـــلاة، لاسـيما إحيـــاء [illegible] من خلال هذا الفهم الصوفي. فكما أدى هـــذا الفهم بنساك الإســـلام إلـــى [illegible] جديدة من التعبد، فكذلك كانت الحال بالنسبة للنساك الإســـرائيليين. و أنمـــاط [illegible] المتفق عليها لم تكف لإنالتهم المطلب الذي لجأوا من أجلـــه إلـــى الصـــلاة [illegible] بدورهم يبحثون عن وسائل جديدة للتعبير. وعثروا على ضالتهم - بصفـــــة [illegible] - في الأوضاع الجسمانية المختلفة. وإذا كانت الصلاة ثغرة تنفذ الروح منـــها [illegible] إلى حالة الإلهام النبوي فإن الأوضاع الجسمانية مراحل يرقى عليها الناســـك [illegible] إلى هذه الحال. وهذه التجربة الصوفية هي الثمرة التي يؤتيـــها الســـجود - [illegible] الخصوص - للمثابرين عليه، وقد احتل مكان الصدارة في نظام صـــلاة [illegible] وقوعه منه. وقد رمى إبراهيم الميموني إلى هذا في قوله عندما عـــدد [illegible] السجود : " وذاق ثمرته الأتقياء " وأضاف إلى ذلك أن هذا مما لا نستشــــهد [illegible] ولا بقياس ولكن تحققه التجربة الصادرة عن الاعتقاد في صحة وجوبـــه [illegible] في حال التعبد به. ويختتـــم كلامـــه بدعوتـــه : تذوقـــوا وانظـــروا [illegible] (ṯ' mw wr'w).

وختاما يتضح التأثير الصوفي أيضا في الأهمية التي يوليها إبراهيم الميموني للبكاء التعبدي[١]. فغزارة الدموع علامة يتميز بها الصوفي العظيم. وقد أطلق على الزهاد الأوائل في الإسلام " البكاءون "[٢] وتبعا لرأي إبراهيم الميمون فإن البكاء هو غاية التهيؤ للصلاة، وبفضله تلقى صلاة المصلى قبولا حسنا كما قيل لحزقيا " قد سمعت صلاتك قد رأيت دموعك "[٣].

(و)

هل رسالة " فصول في النجاح " من تأليف إبراهيم الميموني ؟

نلتقي أيضا بهذا الرأي الذي يرى في الصلاة وسيلة للارتقاء إلى درجة الأنبياء في رسالة فصول في النجاح المنسوبة إلى الحبر موسى بن ميمون[٤]. وقد نفى الباحثون المحدثون، الذين بحثوا هذا المصنف، نسبته إلى مؤلف " دلالة الحائرين " ولسنا نرى أن نقحم أنفسنا في بحث هذه المشكلة. ونرى من الأولى بحث احتمال أن هذه " الفصول " إنما هي ثمرة قلم إبراهيم الميموني، فاستبدل الأب بالابن. ونريد أن نلمح فقط إلى أنه يبدو أن المؤلف من طراز أولئك النساك التابعين لمدرسة إبراهيم الميموني. وأبرز سمات هذا المؤلف الصغير هي أن " الاقتراب من الله عن طريق الوصول بالتحمس في عبادته " قد وصف فيه بأنه " قمة حياة الناسك

---

(١) انظر بشأن هذا :

S. Kraus, Syngogale Altertuemer 410.

(٢) انظر :

Smith : Early Mysticism .. pp. 155-72.

(٣) ملوك ثان ٢٠ : ٥ والنص كاملا " ارجع وقل لحزقيا رئيس شعبي، هكذا قال الرب إله داود أبيك : قد سمعت صلاتك قد رأيت دموعك ها أنذا أشفيك " (الجرح).

(٤) أصدر كل من ش.ص. دويدو بيتس، د.ص. بناط الأصل العربي مع الترجمة العبرية في القدس عام ١٩٤٩م.

في هذا العالم " وأنه بواسطة الصلاة بإخلاص نية يرقى الإنسان من عالم الحس إلى عالم العقل ويصل درجة النبوة " ويتطلع إلى ما هو آت كما ينظر إلى مـا سـلف " وهذا هـو رأي إبراهيم الميموني كما رأينا. وننقل هنا ما يهمنا من أقوال الفصـول " اخدم يا أخي بحواسك، ظاهرها وخفيها على عبادته تبـارك وتعـالى .. ويتجـه المصلي إلى الله واقفًا على رجليه منشرح القلب واللسان، ومبسوط اليدين، وأعضـاء ناطقًا بالألفاظ وبقية أعضائه خائفة ترتجف كما جـاء : " فـاهتزت أساسـات العتب من صوت الصارخ "[1] ولا يكف عن تجويـد الأصـوات العذبـة، خاشـعًا متضرعًا راكعًا ساجدًا وباكيًا .. حتى يجد نفسه في عالم التجلي .. عندئذ ينظر إلـى ما هو آت كما ينظر إلى ما فات .. ولا يخفى عليه شئ في العالم أجمع ".

ونستنتج من هذه الكلمات أن الاتفاق بين إبراهيم الميموني وبين " الفصـول " متفق في التفاصيل : بسط اليدين، الركوع والسجود، البكاء ثم تـأكيد الوقـوف على الرجلين في وقت الصلاة. وهذا جميعه هو التعبد بالحواس الخارجيـة وهـو التعبد الظاهر لإبراهيم الميموني.

---

(1) إشعيا ٦ : ٤.

خامساً : السجود

(أ) إبطاله

كونت أوضاع التعبد الجسمانية على اختلاف أنواعها جزءاً هامًا من الحياة الدينية في اليهودية في أعصرها القديمة. وصور العبادة هذه : البروك، الركوع، السجود، الجثو وإكفاء الوجه. ويكثر ورودها في الكتاب المقدس ومعروف أنها كانت متبعة حتى في عصر الهيكل الثاني. وبعد تخريبه كان هناك ميل واضح لهجر هذه العادة القديمة. وبالتأكيد كان سبب ذلك هو حرص الأحبار على الابتعاد عن سلوك النصارى وعاداتهم[1]. وليكن السبب ما يكون فإن الحقائق – وهي محور اهتمامنا–واضحة، فإن الصور القديمة لم تنقل من الهيكل (بيت المقدس byt hmqdsh) إلى الكنيس (byt hknst). وعندما أدخل الأحبار الأوضاع الجسمانية في الصلاة العادية شرعوها على أساس انحناء القامة والركوع فقط، وهذا لا يعدو الإشارة والتذكرة بالصور القديمة التي كان السجود واحدًا منها، وكان عبارة عن الانبطاح على الأرض مع بسط اليدين والرجلين. وقد حدد أحبار التلمود كيفية الركعات وعارضوا انحناء الجسم أكثر من اللازم. ويتجلى هذا الاعتراض بوضوح في موقف الحبر يهوذا الناسي، الذي حكى عنه أنه رأى أن أحدهم انحنى أكثر من اللازم فأبعده الحبر، ومن المفيد أن نقارن سجودهم في الهيكل بهز الرأس الذي اكتفوا به في الصلاة. كما أنهم حددوا عدد الركعات حتى لا تزيد عن أربعة. ويذكر مصدر ثنائي وارد في التوسفتا وفي التلمودين : " ومن يركع في مستهل كل بركة وفي ختامها يعلمونه ألا يركع ".

---

(١) انظر :

F.S. Ranken : A Dictionary of Christ and the Gospels. Vol. I p. 936.

هذا التسلسل من الركوع الحقيقي إلى ما هو إشارة وتذكرة فحسب، يتضح أيضًا في إكفاء الوجه بعد الصلاة. ففي العصر التلمودي نرى أنهم قللوا منه فلم ينكفئوا على وجوههم حقيقة بل مالوا جانبًا وفي فترة الجاعونيم أضافوا رفع الرأس من فوق الأرض، والمرحلة الأخيرة في إبدال إكفاء الوجه هي العادة الحالية الموجودة في زماننا أعني وضع الوجه على اليد اليسرى في أثناء الجلوس أو الوقوف. وليس هناك ما يدل بصورة ظاهرة على خلو إكفاء الوجه من معناه في الاستعمال اللغوي الموجود لدى علماء الشريعة حين يستعملون إكفاء الوجه في تعبير تشتم فيه رائحة التناقض، فيقولون " لينكفأ على وجهه واقفًا ".

(ب)

إحياء السجود

بعد هذا العرض المجمل علينا أن نبحث هذا التغيير الذي حدث في عصر إبراهيم الميموني أي : إرجاع السجود إلى سابق عهده.

وهذا التغيير يفسر أولاً بأنه تأثير البيئة الإسلامية على وجه العموم. فمن المعلوم أن للسجود منزلة هامة ومرموقة في الصلاة الإسلامية التي جوهرها الأساسي ليس سوى سلسلة من الأوضاع الجسمانية المعينة تصحبها آيات قصيرة من الحمد والتسبيح، وتختلف عن الصلاة في معناها المعتاد اختلافًا جوهريًا[1]. وأدى هذا أن يصبح اليهود في نظر المسلمين تاركين للأصل ومكتفين بالفرع. ونستطيع أن نقف على طبيعة رد فعل المسلمين من النزاع الذي يكشفه لنا إبراهيم الميموني والذي نلم من خلاله أيضًا بالقضية كلها. فهو يشكو من إبدال عادة إكفاء الوجه بالإمالة جانبًا أو إدارة الوجه مرتفعًا كمن يتطلع إلى السماء. ويتحسر لذيوع

(1) الصلاة بمعنى (الطلب) تسمى عندهم دعاء : انظر :
Goleziher Zauberelemente in islamischen Gebete, Noeldeke-Festschift I p. 326.

صورة هذا الركوع بين الأمم على أنه ركوع اليهود، ويقول : لقد نسجوا من هذا حكايات وتحقق فينا القول " تجعلنا عارا عند جيراننا، هزأة وسخرية لمن حولنا"(١).

وهذا الاكتراث لرأي المسلمين يزداد وضوحا إذا ما لاحظنا الخلاف الذي كان بين الربانيين والقرائين(٢)، وقد مارس الأخيرون السجود وإكفاء الوجه حقيقة وكان هذا دليلا منقطع النظير على أن القرائين هم الذين يتمسكون باليهودية الحقة وأن الربانيين هم الذين يزيفونها ويزورونها بتجاهلهم نصوصا بينة متكررة الوقوع في الكتاب المقدس وبإلغائهم عادة عتيقة لها تقاليد موروثة. وكان في هذه الحقيقة تدعيم وتقوية لدعاية القرائين ضد الربانيين في الأوساط العربية. ومن المحتمل أن تكون شهرة " إكفاء الوجه " قد ذاعت من معسكر القرائين بقصد التشهير بالربانيين بين المسلمين. وقد ورد في كتاب الأنوار(٣) تنديد بالربانيين من جراء ذلك وحرموا على الناس أن يلصقوا وجوههم بالأرض وقت السجود وذلك خلاف قول

---

(١) مزامير ٤٤ : ١٤.

(٢) القراءون طائفة يهودية دعت التطورات التاريخية في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي إلى ظهورها في العالم الإسلامي، خلال القرن الثامن الميلادي، وأهم اتجاه لها هو رفض التلمود، والتقاليد في الديانة اليهودية، وسلطان الربانيين، والرجوع بالديانة إلى النص الصافي الوحيد لها وهو التوراة، ويقال أن أول زعيم لطائفة القرائين هو عنان بن داود صاحب الإمام إبى حنيفة، بل يروى أن ثورته الدينية جاءت لنصح الإمام له، وقد أقره الخليفة في الانشقاق على أخيه الذي عين رئيسا لليهود التقليديين، بينما اعترف بعنان زعيما للخارجين على التقاليد ومن نصائح عنان " دعك من كلمات المشنا والتلمود، فسوف أصنع تلمودا بنفسي"، وكان يميل إلى الزهد والتصوف ولا تزال مدرسته تحظى بالاتباع إلى يومنا هذا (الجرح).

(٣) كتاب الأنوار طبعة هركافي ٢٨٧ سطر ٥ وما بعده.

وخروا على وجوههم إلى الأرض على البلاط وسجدوا[1]". ولا يفوت يهودا صاحب كتاب " أشكول " فرصة لا يؤكد فيها أن يكرر أن القرائين يلصقون وجوههم في الأرض : يحنون قامتهم ووجوههم في تراب الأرض. يلصقون وجوههم في غبار الأرض يمرغون خدودهم في تراب الأرض ... الخ. وهذا التكرر لتراب الأرض يفهم في ضوء هذه الحقيقة : إن نساك الإسلام حرصوا على الظهور في الطريق بعد صلاتهم وقد علا التراب جباههم بسبب السجود الأمر الذي عدوه من أعمال التنسك.

وقد تكاتفت الأسباب النسكية مع هذه الدوافع العامة لتدفع محاولة إعادة السجود إلى الكنيس دفعة قوية. ولما كان إبراهيم الميموني ومن تبعه قد أعطوا صلاة أهمية صوفية واجتهدوا في أن يضفوا عليها " صورة خوف " ويجعلوا منها وسيلة للوصل – فقد أباحوا دخول السجود بين جمهورهم لتعظم بواسطته " قوة الباطنة " وليساعد على شد أزر " القوة الظاهرة والباطنة " والوصول إلى تحريك القلب نحوه تعالى".

وأما تعرض الإصلاحات النسكية للمعارضة فهو ما سنقف عليه فيما بعد.

وهنا نود فقط أن نشير إلى أنه من خلال هذه الزاوية نستطيع فهم سبب الاعتراض على إدخال الوقوف في وقت صلاة القديش والقدوشا[2] الذي أدخله حركة التنسك الحبر إبراهيم الميموني والحبر إبراهيم الحسيد. فمن الواضح أن الإصلاح في حد ذاته لم يكن تقليدًا للأجانب ولا يعترض عليه على أساس

---

(1) أخبار الأيام الثاني ٧ : ٣.

(2) صلاة القديش qaddish عند اليهود تقابل صلاة الجنازة عندنا، وصلاة القدوشا qdüsha تقابل صلاة التكريس والتبريك عند المسيحين (الجرح).

أنه من عادات الأمم. وإذا كان الأمر كذلك، فما هو إذا سبب هذه المعارضة العنيفة التي لا تكتفي بالقول بأن ليس هناك حاجة إلى ذلك الوقوف بل تطلب الامتناع عنه؟ ما من شك أن المعترضين عرفوا تماما أن هذا الإصلاح صادر عن الغاية العامة لطائفة النساك، تلك الغاية التي تأثرت بتأثير أجنبي كما أوضحنا. ونجد إشارة إلى هذا في كلمات إبراهيم الميموني عن التصدي للإصلاح المذكور. " عليك أن تسمع ببطلان رأي هؤلاء الذين يقدمون الدليل للامتناع عن هذا وما شابهه في عبادة الله (ويدعون إلى) أن يحقر في أعين الناس التدقيق والاجتهاد المفرد في عبادة الخالق عز وجل " فكان الاعتراض موجها ضد الغاية العامة للنساك : " التدقيق والاجتهاد الزائد في عبادة الخالق " لأن صور العبادة الجديدة ولاسيما الوقوف في وقت القديش والقدوشا لم يكن سوى نتيجة لها.

(ج)

نظام السجود النسكي (الحسيدي)

أدخل إبراهيم الميموني ثلاث سجدات :

١- سجود التعظيم. ٢- سجود الشكر. ٣- سجود الطلب.

أولا : بنى إبراهيم الميموني وجوب سجود التعظيم على قول داود "علوا الرب إلهنا واسجدوا "[1]. فلذا يجب السجود أولا في القديش والقدوشا وهما اللتان ترميان إلى تعظيم الله وإكباره. أما القديش فقد وجد إبراهيم الميموني سندا يرتكز عليه : ففي أيام الجاءونيم اعتادوا على الأقل الركوع وقت تلاوتها. ومما يلفت النظر أنه بدلا من أن يشير إلى لجاءونيم : نحشون وعمرام وسعديا، يستعين بسليمان الإسحاقي : " ومن قبل ذكر حبرنا سليمان الفرنسي رضي الله عنه في

---

(١) مزامير ٩٩ : ٥ ، ٩.

القديس" وكذلك كثيرون من مؤلفي السدوريم " كتب الصلوات " أنه يجب على

أن يركع في أربعة مواضع من القديش ". ثم أضاف قائلا : " وأنا أقول أو

السجود لا الركوع فقط وعلى الناس كافة لا على الإمام فقط. وكما استمد

الجاعونيم رضي الله عنهم من المدراش الركوع على الإمام وقت القديش

حبرنا سليمان رضي الله عنه) استمد أنا وجوب السجود على الإمام

كافة في القديش والقدوشا وغيرهما من قول داود " علوا الرب إلهنا

" مع كونه لم يلزم به التلمود. وهذه هي مواطن السجدات الأربعة في

: (أ) في " ليعظم ويتقدس اسمه العظيم ". (ب) في وقت استجابة " آمين

اسمه العظيم مباركا ". (ج) في استجابة " اسمه القدوس والمبارك ". (د) عندما

آمين في نهاية " يسبح ويتمجد ". ومن أراد أن يضيف خامسة فهذا جائز".

وفي القدوشا يجب السجود مرتين : في " قدوس، قدوس، قدوس " وفي

مجد الرب من مكانه ".

هذا في صلاة الجماعة. أما المواضع المشتركة بين الجماعة والفرد فهي :

زامرا[١]" وفي هليل في ختام كل مزمور، وفي وقت تلاوة " هللويا " كسيرة

في الهيكل : " على كفل فصل نفخة بوق وعلى كل نفخة بوق سجدة ".

الواقع لم يبعث إبراهيم الميموني عادة النفخ في البوق عند كل فصل، غير أنه

" أما رأينا في بعض التقاليد من أنهم ينفخون في البوق عند كل فصول

وفي حول موعيد[٣] وفي غرة الشهر. فهي من قبيل العادة والعرف تذكرا

الهيكل، وهذه عادة محمودة.

النص Fswqi Zmrh وهي : مزامير تتلى قبل صلاة الصبح (الجرح).

النص hllwyh وهي : مجموعة من المزامير تتلى في غرة الشهر والأعياد (الجرح).

النص bhwl shl mw'd وهي الصلوات التي تقام في الأيام التي تتوسط الأيام الأولى والأخيرة عيد الفصح وعيد المظال (الجرح).

وفي بركات " تلاوة اسمع " وفي " تلاوة اسمع " ذاتها يطلب حبرنا السجود في المواضع التالية :

أ – في " باركوا " عند استجابة الجمهور " مبارك الرب المبارك إلى الأبد ".

ب– في ختام كل بركة من بركات تلاوة اسمع " كما كان يحدث في ختام فصل في بيت المقدس في لحظة صلاتي " التوحيد " و" الربوبية ".

ج – في آية " اسمع يا شعب إسرائيل ".

د – عندما يقال " مبارك اسم ملكه المجيد ... الخ ". كما كان ينهجون في الهيكل : " وكل الشعب يركعون وينكفئون على وجوههم ".

هـ– عند ذكر الألوهية في آخر " تلاوة اسمع " : " أنا الرب إلهكم ".

و – عند " وخاف جميع الشعب وانكفأوا على وجوههم "، في بركة " أنمنا ".

ثانيًا : سجود الشكر ويكون في بركة الشكران في أولها وفي آخرها.

كذلك يجب عليهم السجود في الآيات التي تتضمن عبارات الركوع والسجود مثل " وكل قامة تسجد أمامك " في بركة هشير[1]. أو " ونحن سجود أمام الملك " في الصلاة الإضافية في رأس السنة. ومن يتلو مثل هذه الآيات دون أن يسجد يقال فيه استهزاء : " ما أعذب الكلمات التي تخرج من فم صائغها " وقالوا مثل ذلك (كل من يتلو " تلاوة اسمع " دون أن يضع التفيلين فكأنما يشهد في نفسه شهادة زور).

ثالثًا : سجود الطلب : وهو إكفاء الوجه بعد الصلاة. ويعتقد إبراهيم الميموني أن قول التلمود : " لا يحق للشخص المهم أن ينكفئ على وجهه ". ينطبق على

---

(١) في النص hrkht hshyr ومعناها بالعربية "بركة النشيد" وهي صلاة يهودية خاصة (الجرح

سجود الطلب فقط ولكن في سجود التعظيم والشكر مسموح حتى للشخص المهم أن يلصق جبهته بالأرض. وعلى بقية الناس أن يسجدوا دون إمالة في إكفاء الوجه. سجود الإمالة فعلى كل حال يجب أن تكون إمالته يسيرة " ولا يرقد على جانبه ويرفع وجهه إلى أعلى كمن يتطلع إلى السماء كما فعل البعض حتى ذاعت هذه الصورة بين أمم العالم كصورة لسجود إسرائيل ونسجوا من ذلك الأقاصيص لينفذوا وعيده تعالى : " تجعلنا عاراً عند جيراننا سخرة وهزأة للذين من حولنا ".

(د)

الاعتراض على إصلاحات الحسيدين

هكذا كان نظام السجود في المنحى النسكي الجديد. وعندما نأخذ في حسابنا السجدات الأربعة الموجودة في صلاة يوم من الأيام العادية نجد أن في مقابل الركعات الأربع في اليوم العادي وإكفاء الوجه في نظام الصلاة التقليدي قد دخلت السجود سجدة في نظام الصلاة المعدل فضلاً عن السجدات الواجبة في المواضع التي يرد فيها ذكر السجود، وعما يضيفه كل فرد عندما يخشع قلبه ويزداد حماسه. وعندما تلحق بهذا سائر العادات الجديدة : الجلوس على شكل بروك والوقوف صفوفاً وبسط اليدين – ترتسم أمامنا صورة عظيمة الأثر للصلاة بالجماعة في عصر الحبر إبراهيم الميموني. وقد كان من الطبيعي أن يثير هذا التغيير المتطرف الثوري معارضه عنيفة من جانب المحافظين. وقد وصفوا أولاً الإصلاحات النسكية وخصوصاً السجود بالذات – بأنها تقليد صريح للعبادة الإسلامية، وحرموا ممارستها بسبب النص " لا تتعودوا بعادات الأمم " ثم إنهم رأوا في هذا محاكاة للقرائين وهو بدوره محرم أيضاً، تبعًا لقول التلمود " لا يقلد أصحاب المذاهب ". ويجدر الإشارة إلى أنه كان من بين المعارضين حبر من قطر نصراني أغفل الحبر إبراهيم اسمه وأشار إليه بقوله : " بعض أصحاب الفتوى من مشاهير علماء الروم ومشايخهم ".

وخاض الحبر إبراهيم الميموني غمار معركة جدلية ليدافع عن رأيه في جلـ وأناة وكان يدير معركته في حماس وعصبية. وتكون كلماته في الصلاة وتحسـ أنظمتها مقالة قائمة بذاتها يسميها " المقالة الصلوية " وهي تعتبر وثيقة دينية بالغـ الأهمية.

ويجدر بنا أن نعطي فكرة مجملة عن دفاعه الأساسي. فهو قد اضطر أولاً أن يفند من خلال نصوص التلمود تلك الادعاءات التي وجهها إليه معارضوه. ولذا فهو يميز بين الحد الأدنى المطلوب في الشريعة وبين رغبة الناسك في أن يشـق علـى نفسه ويتجاوز ما هو مطلوب. ويبذل حبرنا كل ألوان الاجتـهاد الـذي يبلـغ حـ التعسف لكي يثبت أن أقوال التلمود المتصلة بمسألة الركوع ليس من مقاصدهـا أن تسد الطريق في وجه من يفعل ما هو أكثر مشقة بدفع المبالغة والجد في عبـادة الله وأما النص الذي يستدلون به على المنع وهو " ومن يركع في مستهل كل بركة وفـي ختام كل بركة يعلمونه ألا يركع " فلا يعد دليلاً على أنهم عـارضوا إضافـة هـذا الركوع على عدد الركعات لأنهم لم يقولوا " يمنعونه " أو " يحرمون عليه " بل قالوا " يعلمونه " أي ليعرف أن هذا غير لازم. وحتى مثل هذا اللفظ الـلاذع " مذمـوم " الوارد في مصدر آخر : " ومن يركع في بركة هليل وبركة الطعام فهو مذمـوم " لا يعد دليلاً على الإطلاق لأنهم لم يقولوا ممنوع. وإبراهيم الميموني على اسـتعداد للتخلي عن رأيه في حالة واحدة فقط وهي حالة ما إذا عثر أحد المعترضين عليـه على نص في المشنا أو في البريثا أو التلمود كهذا : محظـور علـى الشـخص أن يسجد في القديش والقدوشا، أو محظور أن يسجد أمام الله في الصلاة، ونحو ذلـك عندئذ يقر له بأنه قد نسى ذلك أو لم يقف عليه، ومن المعصوم من الخطأ ؟

ويرفض حبرنا البتة ادعاء محاكاة الأمم أو القرائين. لأنه لا وجـه لتحريـم العادات الإسرائيلية القديمة التي اختفت من اليهودية أثناء النفي بالاستناد إلى قـاعـ

عادات الأمم". وإذا شئنا أن نحرم الأشياء التي اعتنقتها الأديـــان الأخرى فإننا سنضطر للتخلي عن كثير من وصايا التوراة كـالصلاة والزكـاة اللتيـن أصبحتـا ركنين في الإسلام". ويشير أيضًا إلى عادات مشتركة بين اليـــهود والنصـــارى : "ادعى أحدهم أن في هذا منعًا لأن الأمم يصلون هكذا فأجبه بـــأن النصـــارى يصلون جهة أورشليم في صلاتهم، فهل من أجل هذا يحرمون علينا لستقبال جهـة الشمس في صلاتنا ؟ والأمم تقف ونحن نقف ويركعون كما نركع ".. وهذا الالمـاع إلى عادات النصارى كان موجهًا إلى معارضيه من بين الأحبار المقيمين في أقطار النصارى. وهو يقيم من نفسه الحكم فيما يختص بمحاكاة القرائين : " حقًـــا يجب الامتناع عن تأثر خطاهم وأصولها في شريعة إسرائيل ".

وهذا التقليد للأمم الذي دفعه هو عن نفسه رمى به خصومه واتهمهم بمحاكـاة النصارى: " بينما يحرمون السجود لإله إسرائيل هاهم يزينـــون آسفار التـــوراة بالتماثيل الأسى وهي عادة الأمم الوثنية وحدها لأن النصارى هم الذيـــن يزخرفـــون الهياكل بالأكاليل ..." وليس هذا فحسب بل إن الاعتراض على عادات النسك ذاتـــه يعد حرامًا " وليس في هذا خوف من الحرام بل الحرام هو سد طرق التعبد والخشية من الله في وجه إسرائيل ". وأما المعارضون فـــهم " محرضـــون ومضللـــون " : العدول عن الحق المقارب لصورة التحريض أو التضليل هو أن يعتقد أن في شئ من ذلك تحريمًا أو يمنع فاعله أو يقبح فعله أو لا يستحسن فعله ويستعظم شأنه ".

ويأسف حبرنا على هذه المعارضة التي سببت له خيبة أمل مريـــرة وحزنًـا شديدًا وعندما يتحدث عن إصلاح أبيه بخصوص إلغاء صلاة الهمس – الذي كـــان نفسه هو الآخر كما أوضحنا التأثير الأجنبي – يحسد أبـــاه العظيـــم علـــى عـــدم معارضة الأحبار المعاصرين له في هذا. وقد نقلنا كلماته التي تحمل هذه المـــرارة من قبل- ولم ينجح أيضًا في أن يقنع معارضيه حتى بعد إصـــدار مؤلفـــه " كفايـــة

العابدين ". ولم تنته ادعاءات الجانب المضاد، ففي نزاعه مع هوديا الناسي hwdyh hnsy' من عائلة الناسئين بدمشق، ندد الأخير بحبرنا من جراء إصلاحاته النسكية. ومن الطريف تعليقه على ذلك بقوله " ولست أخشى هذه الأباطيل فما يمكن أن يقال عن : هل أفرطت في إخافة الجمهور من شئ دون الله ؟ هل جرت في الحكم ؟ هل تقاضيت رشوة ؟ هل ابتغيت الربح ؟ هل أقسمت باطلاً ؟ لن يستطيعوا أن يقولوا عني هذا ولا غيره، سوى أنني مثابر على عبادة إله إسرائيل تبارك اسمه بكل قلبي وروحي وأكثر من الركوع والسجود وبمثل ذلك يتحدثون عني وهو مالا أخفيه عنهم ".

(هـ)

انتشار حركة النسك (الحسيدية)

لا نكاد ندرك شيئًا عن مدى انتشار حركة النسك من خلال المصادر التي بين أيدينا الآن. ونستنتج من شهادة حبرنا نفسه أن الإصلاحات النسكية قد لاقت قبولاً في دوائر معينة على الرغم من تلك المعارضة، غير أن كلماته ليس فيها ما يكفي للوقوف على محيط هذه الدوائر. فإذا كانت المسألة التي عرضت على حبرنا ومحكمته في هذا الشأن قد جاءت من مصر - ويحتمل أن تكون من الإسكندرية - نستنتج مما ورد فيها أن طائفة النسك شملت دوائر كبيرة جدًا إذ أن كثرة عددها تكون قد سمحت لهم أن يفردوا لهم مدارس خاصة بهم استطاعوا أن يثابروا فيها على شعائرهم دون أن يزعجهم أحد.

ويجدر بنا أن ننقل هنا ذلك الاستفتاء التالي لأنه دون شك وثيقة هامة في تاريخ النسك الشرقي :

"يخبرنا حكماء وأحبار إسرائيل معلمو دين الله وأحكامه - كان الله في ... ضاعف أجرهم - ما هو حكم التوراة في أناس من بني إسرائيل جنحت إلى الاجتهاد في مخافة الله وحبه وعبادته حسب قدرتهم. وأخذوا أنفسهم في صلاتهم حتى تكون بنية خالصة، وفي صورة خوف، وعندما يصلون في الكنائس وبجمع غفير يضم الجهلاء وأغلب الجمهور يصلون معهم وفقًا ... الشيعة والفرض المحدد حتى لا يكلفوا الجمهور مالا يطيقه، وعندما يصلون ... في منازلهم أو جماعة عندما يجتمعون في مدارسهم في صلوات " فسوقى ... أو في بركات " تلاوة اسمع " في رهبة وخوف ويرى وجههم جهة القدس ... طريق أرض إسرائيل وأورشليم والهيكل ... الخ. ويثقلون على أنفسهم ... جلوسهم كوقوفهم للصلاة ؟ فهل يحق الامتناع عن ذلك حتى لا يبدو ... أقوال الأحبار ؟ أو لا نمتنع عن هذا لأنه طريق مخافة وتعبد بإخلاص نية ... الأحبار ؟ ".

(و)

الحسيدون (النساك) الفلسطينيون

يتضح من ناحية أخرى أن حركة النسك الحسيدي لم تنحصر في مصر ... بل عرفت طريقها أيضًا إلى فلسطين. ونجد دليلاً على هذا في مدخل سدور ... التي صادفنا من قبل واستشهدنا به فيما يتصل بغسل الرجلين. ونذكر هنا ... الفقرة التي تعنينا :

... أن تعرضنا لهذه الصلاة في خامسًا ج وقلنا إنها الصلوات التي تقام في الأيام التي تتوسط الأيام الأولى والأخيرة من عيد الفصح وفي المظال (انجرح).

" وهكذا يسجد في موضع صلاته ويسأل طلبته من خالقه وإلهه، ويكثر من الاستغفار لوالديه ولكل إسرائيل، وإذا جثا مربوطا أمام بارئه على جانبه الأيسر فيجب أن يكون صدغه الأيسر على الأرض ويده تطوق أسفل جانبه الأيمن وكذا تكون رجله، ولكن يده اليمنى تكون مرفوعة، ويكون رابضا كحمل مربوط استعدادا للذبح كي يذبح هواه أمام خالقه ويتضع أمام بارئه ويتذكر تضحية سلفنا إسحاق فهي ليست تضحية فقط بل طريقة للركوع والبروك كمثل ذي بأس يركع على ركبته ويداه مبسوطتان نحو السماء ووجهه مرفوع ".

" وهذه هي طريقة البروك، لأنه قيل : " ثم جثا على ركبتيه تجاه كافة جمهور إسرائيل وبسط كفيه نحو السماء "[1]. غير أن الركوع أساس كل شئ لأنه ما من شخص لا يحني قامته ثم يستطيع السجود أو البروك أو الربط، كما قيل وخروا على وجوههم على الأرض على البلاد وسجدوا "[2] وقيل " ولدي انتهى المحرقة خر الملك وكل الموجودين معه وسجدوا "[3] ومع ذلك فالسجود رأس كل صلاة وبه تنتهي الصلاة وهو البداية والنهاية، فتارة يذكر أولا " هلم نسجد ونركع ونجثو أمام الرب خالقنا "[4] وتارة يذكر في الآخر. " وخروا على وجههم إلى الأرض على البلاط وسجدوا " لأن كل سجود على الأرض يكون باليدين والرجلين والوجه وفي الأيام الأولى لم يسجدوا على الأرض إلا في الهيكل وليس في المكان المعد للصلاة. فعلى هذا النحو فسر الأحبار : " ولا تجعلوا في أرضكم حجر

---

(١) ٢ أخبار الأيام ٦ : ١٣. وهذه هي ترجمة النص كما أورده المؤلف وإن لم تتفق دائما مع ما نجده في النسخ المتداولة للعهد القديم (الجرح).

(٢) ٢ أخبار الأيام ٧ : ٣.

(٣) ٢ أخبار الأيام ٢٩ : ٢٩.

(٤) مزامير ٦٥ : ٥.

تسجدوا له "[١]. وأما اليوم وقد ذهبت ريح الوثنيين فيسمح بالسجود في المخصص للصلاة لأنه قيل : ولما وصل داود إلى القمة حيث سجد لله.."[٢].

من هنا نعلم أن الاتجاه الجديد تم له الاستقرار في فلسطين، وهذه هي النتيجة التي نستخلصها من هذه القطعة. أما عن التفاصيل : فعلينا أن نشير إلى الملاحظات التالية :

(أ) يبدو أن المؤلف عاش في عصر الثورة النسكية ذاته وفي زمن الانتصار للسجود أو معارضته، أو على الأقل عاش بالقرب من هذه الفترة. والدليل على ذلك اتسام كلماته بطابع النزاع. فهو يرى نفسه مضطرًا لتوضيح سبب تغير النظرة إلى السجود : لماذا لم يتبعه المتقدمون ؟ ولماذا يجب الرجوع إليه الآن ؟ وأكثر من ذلك فهو يرفض كما سنرى فيما بعد عادة الاصطفاف في الصلاة، التي أدخلها إبراهيم الميموني.

(ب) يبرز تأثير القرائين في تشريع : "ومع ذلك فالسجود رأس كل صلاة وبه تنتهي الصلاة " إذ كانت هذه هي عادة القرائين فهم يبدأون الصلاة ويختمونها بالسجود.

وينفرد سجود الابتداء بأهمية خاصة لدى القرائين الدمشقيين الذين ربطوه بفكرة دينية معينة، تنزع إلى إخضاع قلب المصلى، وأضافوا إليه نصًا خاصًا يقول : "بعد ذلك يكب على الأرض ويلصق وجهه بها ويقول : يا ربي ها أنذا ألصق أشرف أعضائي بالمكان الذي تطؤه

---

(١) التكوين ٢٦ : ١.

(٢) صموئيل ١٥ : ٣٢.

قدماي، إنه التراب الذي إليه مرجعي كما علمتني : لأنك من تراب وإلى التراب تعود. ويشبه نفسه بالأرض باعترافه بأنه جاء من التراب "[1]. وينبغي أن نخص هذا الاستشهاد بشئ من الاهتمام لأن الآية التي يستشهد المؤلف بها : " هلم نسجد ..." يتلوها بعض القرائين في سجدتهم الأولى.

(ج) ويضيف مؤلفنا الناسك صورة جديدة إلى بقية صور ركوع القرائين وهي " الربط " فما حكاية هذا الربط ؟ يتضح من وصفه أنه لا يعني "إكفاء الوجه" الذي يأتي في أعقاب الصلاة في صورته المعتادة عن طريق الميل على الجانب الأيسر ورفع الجانب الأيمن[2]. وهنا نقف على ظاهرة تثير اهتمامنا فأساس الميل على الجانب صادر عن عرض سلبي – أي منعا لإكفاء الوجه الحقيقي، ولكن النظرة الجديدة إلى السجود تحتم إلغاء الميل تماما. بيد أنه نظرا لذيوعه في إسرائيل عدة قرون واكتسابه قداسة التقاليد لم يشأ نساك فلسطين نبذه، وإنما عملوا على تخليصه من قصده السلبي. وإعطائه مغزى دينيا إيجابيا ورفعوا بواسطته " إكفاء الوجه " إلى مرتبة الوضع التعبدي المستقل ذي القيمة الذاتية، وأبدلوا اسمه إلى "ربط" ووضعوا لها فعلا جديدا بهذا المعنى : *L'qwd* " لتربط ". والفكرة التي جعلوها أساسا للربط هي أن هذه الصورة قد جاءت لترمز إلى *h'qydh* المربوطة استعدادا للذبح واستنبطوها من كلمات الحبر نطروناي جاءون، الذي أوضح

---

(١) انظر المصدر العربي في J.Q.R. ١٨ ص١٢ ، ٥٣ – ٥١.

(٢) هكذا يصف الجاءونيم وأصحاب الشريعة " الميل " : يميل على الجانب ألا يسر ويرتاح الجانب الأيمن.

لماذا يميلون على الجانب الأيسر ويرفعون الجانب الأيسر عندما يذبحونها " فاستوحى نساك فلسطين من هذه النواة فكرة ذات وجهين :

- لكي يذبح هواه أمام خالقه، ويتضع أمام بارئه.
- لنذكر تضحية سلفنا إسحاق.

ومن الواضح أن تغيير الاسم والمضمون يعد في أساسه استئصالا لإكفاء الوجه المتفق عليه من جذوره، فما من إكفاء للوجه هنا بل " ربط "، وهم لا ينكفئون على وجوههم بل " يربطون ". وهنا اقتفى النساك الفلسطينيون أثر الحبر إبراهيم الميموني الذي رأيناه يندد بتلك الصورة " التي أورثت اليهود الخزي والعارفي نظر المسلمين ". وليس هناك فارق بينه وبينهم سوى اختلاف الطريقة والأسلوب فقد طالب هو بإبطال الانكفاء تماما، وعندما سئل : لماذا اعتادوا الميل على الجانب الأيسر بالذات ؟ أجاب إجابة جافة مؤلفة من كلمتين " لأنه أسهل "، ويجوز لنا افتراض معرفة إبراهيم الميموني التامة بشروح الجاءونيم المختلفة لهذه العادة غير أنه يتجاهلها عن قصد حتى لا يقيم وزنا لأمر إبطاله خير من الإبقاء عليه. والأمر يختلف بالنسبة لنساك فلسطين. فقد اتبع هؤلاء خطة " تغيير الروح مع إبقاء الجسم ".

وفضلا عن ذلك، إذا كان نساك فلسطين أنفسهم قد استمروا يتمسكون بصورة "إكفاء الوجه " التقليدي فإن أحبار فرنسا – الذين أكبروا الحبر إبراهيم الميموني وهم مقيمون في مدينة عكا – قد انكفأوا أيضا. وهذا الأمر نستنتجه من خلال بضعة سطور بقيت لنا في إحدى قطع الجنيزة، وهذا نصها :

" المقيمون اليوم في عكا حفظهم الله الحبر يوسف بن الحبر مستاتيا والحبر يهودا والحبر صمويل هؤلاء الذين يركعون وينكفون على وجوههم وليس جانبا بل على ركبهم ووجوههم على الأرض "(١).

أن هذه القطعة المبتورة من أولها وآخرها لترمز بالإضافة إلى الغاية التعليمية التي ترمي إليها – إلى ذلك التغيير الأساسي الذي حدث بالنسبة للسجود حتى بين الأحبار الذين يقيمون في بلاد النصارى أيضا.

(ز)

في الأقطار الأخرى

هل انتشرت الأفكار النسكية في أقطار عربية أخرى عدا مصر وفلسطين؟ يمكن أن نجيب على هذا السؤال عندما يتم الكشف عن مصادر أخرى. أما الآن فننبه إلى موضع في شرح سليمان بن يشوعا Shlwmh bn Yse'h الكاهن باللغة العربية على كتاب " الجب " في " تثنية التوراة " ونحن لا نعرف زمن الحبر المشار إليه أو مكانه، وعلى أي حال فإن في هذا الموضع شبه دليل آخر على الوضع الجديد بالنسبة للسجود، ففي شرحه على التشريع الثالث عشر في الجزء الخامس من تشريعات الصلاة اضطر الحبر سليمان الكاهن أن يعرف بالتدقيق كلا من البروك والجثو والسجود وطريقة أداء كل على حدة. ثم اختتم قائلا(٢) " وأرشدنا الأحبار رضي الله عنهم إلى التعبد في صلواتنا بجميع ذلك وهو أن يركع خمس ركعات ثم يخر على وجهه ويسجد ثم يجلس وهو بارك. فأفهم ذلك ".

---

(١) انظر : J. Mann : Jews in Egypt. II p> 371.

(٢) مخطوط أكسفورد رقم ٦٢٣.

ومما يجدر ذكره أن الحبر سليمان الكاهن قد تأثر في تحديده للركوع بعـــادة البيئة الأجنبية. فهم لم يأخذ حتى بأحد الحدود الموجودة في التلمـود التـي ذكرهـا الأحبار الأوائل ومن بينهم الحبر موسى بن ميمون، وإنما تابع الركوع الموجود فـي العبادة الإسلامية، وسبق شرحه بأنه انحناء الواقف ووضع يديه على ركبتيه.

وفي الختام علينا أن نضيف أنه من الواضح أن حركة العودة إلـى السـجود القديم قد بلغت "آرام صوبا rm swbh' أيضا ". ونستنتج هذا من الحقيقة التاليـة : وهي أن الحبر الطبيب شيث هروفا بن يافث من آرام صوبـا – معـاصر الحـبر إبراهيم الميموني – وجد نفسه مضطرا للدفاع عن العادة القديمة أي عدم السـجود على الأرض ودعا إليها قائلا " إن هذا هو ما يجدر فعله " ومعنى هـذا أن بعـض الرجال كانوا قد بدأوا آنذاك يسلكون سلوكا آخر. وهذه أقواله المثيرة بنصها :

" وإني أرى أن أكتب هنا لماذا لا نركع ولا نسجد وننكفئ على وجوهنا فـي الصلاة بل ننحني في صلاتنا قليلا ونميل على الجانب الأيسر ونبتهل ؟ أعلم أنـهم رضي الله عنهم أبعدوا أنفسهم وإيانا عن الوثنية، لأن منهم من ينفرج أمـام قـاعود "اسم صنم" بإحدى طريقتين فإما أن ينام على عموده الفقري ويرفع رجليه إلى أعلـى كي يبقى عجزه تلقاء الصنم. وإما أن يجلس على ركبتيـه، ويضـع رأسـه علـى الأرض وعجزه لأعلى تجاه الوثن، ولهذا قال أحبارنا رضي الله عنـهم إن الأمـم الأجنبية يعبدون أوثانا بطهارة، ولذا فقد وضعوا لنا حدا للانحناء بأن يكون الـرأس تجاه القلب. وهذا ما يجدر فعله ".

سادسا : جلسة البارك

(أ)

إذا كان في تخصيص مكان السجود في الكنيس إحياء لعادة يهودية عتيقة فإن الجلوس على هيئة البارك هو محاكاة معناها ارتكاز العادة الإسرائيلية على أساس أجنبي. وهذا الفارق هو الذي يعطي لموضوعنا هذا أهمية خاصة.

فقد تكلم الحبر إبراهيم الميموني عدة مرات عن جلوس التعبد، في ذلك الفصل من كتاب كفاية العابدين الذي نشره أفنشتين[1]. بيد أنه نتيجة لغموض كلماته لا يستطيع من يتدبرها أن يقف على طبيعته وبالأحرى لا يستطيع أن يقدر ما بها من تجديد. وهذه الكلمات واضحة هنا في ترجمتنا العبرية :

" فيجب في حال الجلوس التعبدي – أعني في " فسوقى زامرا " "وتلاوة اسمع" وبركاتها – ألا يكون جالسا كيفما اتفق ولا جلوسا يدل على قلة احتفال أو قلة تأدب، بأن يكون الجالس مستندا إلى حائط أو جالسا كمن يجلس للاستراحة في بيته ومنزله وبين أصحابه وأهله. بل كما كان من أنه يجب على الواقف أن يكون وقوفه كما بين الأحبار " كالعبد الخاشع " كذلك يجب على الجالس أن يكون جلوسه في حال تعبده الصلوى جلوس عبد متأدب أمام مولاه إذا أذن له بالجلوس. ولذلك كان جلوس الأنبياء في حالة أدعيتهم وصلواتهم كما تبين في سليمان ودانيال جاثين على ركبهم. وهو الواجب الذي ينبغي أن لا يخل أحد به أو بما يقرب منه، إلا إذا عجز

---

(١) انظر كتاب إسرائيل ليفي " اليوبيل " ص٨٤ (نص عبري).

الجالس عن الاستمرار على هذه الصورة لطول مدة الجلوس أو لعارض جسماني يكون به طبيعيا أو عرضيا "[1].

وهكذا نجد أن الجثو على الركبتين والجلوس على الرجلين الموضوعتين تحت الفخذين هو صورة الجلوس الحسيدي. وهو ذاته الجلوس الذي تفرضه العبادة الإسلامية في وقت الصلاة. وهو الذي كان مألوفا أيضا عند القرائين كما يؤكد صاحب كتاب " أشكول " : " ويجلسون على الكعبين باسطين أيديهم إلى السماء". وهو يذم الربانيين " ويجلسون على مقاعدهم كالذين يجلسون إلى موائدهم للطعام".

لكن ما هي الأسانيد التي عثر عليها حبرنا في المصادر اليهودية لصورة هذا الجلوس ؟ أليس المفروض تبعا لخطته أن من الخطأ أن نحاكي - حتى لو لم يكن في الأمر تحريم - العادات الإسلامية التي ليس لها مثيل في التقاليد الإسرائيلية ؟ والجواب أن حبرنا خلق الأسانيد لذلك بواسطة تعريفه الجلوس الإسلامي بأنه بروك القرائين الموجود في صلاة سليمان ودانيال.وهو يحدد البروك : اسم البروك واقع على جلوس الجالس كالبارك على ركبتيه وساقيه مثني لوركه كبروك الجمل.

---

(١) أعطى الباحث هذا النص بالعبرية مترجما من النص العربي الأصلي، ولكنه ضم النص العربي نفسه بين ملحقات بحثه، والموجود هنا هو نفس النص العربي كما كتبه الحبر إبراهيم الميموني بأسلوبه، وليس لنا فيه إلا نقل الكلمات من الحروف العربية، وترجمة بعض الفقرات العبرية، ولزيادة الفائدة نقتبس سطورا أخرى هامة مما جاء في كلام إبراهيم الميموني في هذا الصدد " لأنه هكذا رأينا سير الأنبياء في حال أدعيتهم كما يطلب السائل ممن يتصدق عليه " فيطلب وكفاه للسماء " ... لأن الآدمي عندما يطلب من خالقه يتجه بقلبه لخالق الموجودات ويوجه بصره في أرفع الموجودات المرئية التي هي السماء الدالة على عظمة خالقها " وانظر ملحق ٥ من الأصل (الجرح).

وعندما نتطلع إلى واقع الأمر نرى أن الجلوس قد خلت من نظام صلاة حبرنا وحل محله البروك - حسب تحديده له - بيد أننا نرى أن حبرنا لم يترك هذا لأن وضع العبادة الذي نحن بصدده لم يكن له تسمية خاصة لدى علماء الإسلام يفرق بينه وبين الجلوس العادي بل أطلقوا عليه اسم (الجلوس) وهي تسمية لا تنطبق عليه بدقة.

(ب)

ولم يكن التجديد في الصورة فحسب، فبواسطة الجثو على الركبتين اتخذ الجلوس طابع العبادة وارتفع إلى مرتبة الوضع الديني التعبدي التي يعبد الله عن طريقه أيضا كما يعبد عن طريق سائر أوضاع العبادة : " وأيضا الجلوس أمامه تعالى إذا كان بتأدب وتعبد فهو عبادة ". وفي هذه الحالة يستشهد حبرنا إلى شواهد من الكتاب المقدس كقول داود " طوبى للجالسين في بيتك "[1] وقد قيل : " بل تكون تجارتها للجالسين أمام الرب "[2]، " فدخل الملك داود وجلس أمام الرب "[3].

وتأثير الإسلام واضح في هذا الفهم للجلوس، فهو يجعل الجلوس من أعمال التعبد في الصلاة بل هو فرض وركن فيها؛ فإذا صلى المسلم ولم يجلس في الموضع الذي يجب الجلوس فيه فكأنه لم يؤد فرض الصلاة ويجب عليه أن يعيدها. وجدير بالذكر هنا أن تفسير حبرنا لجلوس البروك بأنه جلوس تأدب لعبد بحضرة

---

(١) مزامير ٨٤ : ٤ وقد جاءت في ا لترجمة العربية المتداولة " الساكنين " وذلك لأن الفعل العبري yshb يعني أقام أو سكن، كما يعني جلس، ويقابله الفعل العربي " وثب " الذي يعني جلس أو قفز (الجرح).

(٢) أشعيا ٢٢ : ١٨ حيث تجد الترجمة العربية قد آثرت " المقيمين " بدلا من " الجالسين " لنفس السبب الذي نبهنا إليه في الهامش السابق (الجرح).

(٣) صمويل الثاني ٧ : ١٨ وهنا استعملت الترجمة العربية الفعل " جلس " خلافا للشاهدين السابقين (الجرح).

مولاه هو تفسير من زاوية واحدة ولا يعبر عن وجهة نظره بحذافيرها إذ أنه أيضا يقترب في حقيقة الأمر من لب التنسك. على أن مقالته عن الصلاة تفوح منها رائحة الخلاف. فهو يبغي أن يبرر الإصلاحات الحسيدية للذين ينحون عليه باللائمة، أي أن الذي دعا إلى هذه التعبيرات العامة أصلا هو تجميل هذه الإصلاحات حتى في نظر من لم يعتنق المذهب الحسيدي بيد أن الدافع الأساسي الذي اعتمد في صدر حبرنا عميق للغاية يكشف جذور تفكيره الصوفي ويلقي الضوء على إصلاحاته : " فهذه الحالة الجسمية – عندما يجلس المصلي ورجلاه مثنيتان من تحته، مستقبلا القبلة – تفيد في تطهير الكفر، وإحضار النية وتهيئة المصلي للتجربة الصوفية ولإدراك " الحال العظيمة " التي هي النبوة أو ما يشبهها– وهذه هي غاية الناسك، وهذا التعبد أعني الجلوس وما يأتي بعده استعدادا لإحضار النية تتحرك وتصفو به إلى أن تصل في آخرها – لمن جد وأخلص وصاحبته العناية الإلهية – إلى تلك الحال العظيمة التي تقدمت الإشارة إليها، فافهم هذا السر لأنه عظيم "[1].

" وقد امتد الاعتراض على إصلاحات إبراهيم الميموني حتى بلغ هذا الجلوس الذي حرمه المحافظون تبعا لقاعدة " محاكاة الأمم "، بينما يحض إبراهيم الميموني على عدم الامتناع عنه بالرغم من أنه " هكذا تجلس الأمم "[2]. وفي النهاية ينهج الحبر سليما بن يشوعا نهج حبرنا. وحرى بالذكر أنه يستخدم أيضا في تعريف البروك لغة حبرنا : " البروك هو أن يجلس الإنسان باركا على ركبتيه وساقه ووركه مثنى كبروك الجمل ".

---

(١) قارن : روز نبلات، الجزء الثاني ص٢٦٤.

(٢) ونص كلام الميموني " وبحسب جميع ذلك يتبين لك أن الجالس في حال صلاته بارك على ركبه مستقبل القبلة لأن ذلك فعل دانيال وسليمان، لا يمنع من ذلك أن " الأمم الأجنبية تجلس هكذا في صلاتهم " (الجرح).

سابعا : استقبال القبلة أثناء الجلوس

(أ)

أدخل الحبر إبراهيم الميموني والحبر إبراهيم الحسيد تعديلا هاما يتصل بالجلوس سواء بالنسبة للجمهور أو بالنسبة للشيوخ وهو أن يستقبلوا جميع القبلة في أثناء جلوسهم كذلك.

وتقضي العادة التقليدية باستقبال القبلة في وقت الصلاة الطالية التي تقال وقوفا ليس غير. وفي أجزاء الصلاة التي تقال جلوسا يحق للمصلي الاتجاه إلى أي جهة يشاء. وقد أدت هذه الحرية إلى جلوس غير منظم في الكنيس، ويذكر لنا إبراهيم الميموني تصويرا للاضطراب الذي ساد في عصره : "جالسون في حالة تلاوة فسوقى زامرا وتلاوة اسمع – وبركاتها على أوضاعهم كيف تتفق لهم مستندين للحيطان غير متوخين استقبال جهة معينة بل منهم من يقع استقباله للقبلة اتفاقا ومنهم من يستدبرها ومنهم من يجانبها أعني تكون عن يمينه أو يساره "(١).

وقاد إبراهيم الميموني معركته ضد هذا الاضطراب في الحق كان يعرف أن عادة استقبال القبلة في وقت الوقوف فقط عادة عتيقة جدا وهو ذاته يذكر أن هذه العادة كانت سارية في أيامه في جميع الأماكن وقبله بسنين كثيرة لا يحصرها العدد ولكن على الرغم من قدمها وانتشارها فقد طالب بالتخلص منها. لأن هذه الخواص الظاهرية (القدم والانتشار) ليس في استطاعتها أن تعطي سلطة لعادة ليست مؤسسة على الحق. وقد أفاض الحبر إبراهيم الميموني في الكلام عن هذا الموضوع في مكان آخر. وفيما يختص بموضوعنا نكتفي بهذه الكلمات المجملة :

---

(١) أعطى الباحث الترجمة العبرية لهذا النص، وأحال إلى الأصل العربي في ملحق ٦ من ملحقات كتابه، والمقتبس هنا هو النص العربي الأول لا ترجمة النص العبري (الجرح).

"وليست العادة هي الأصل الذي يجب أن يعتمد عليه بل النص أو القياس أو مجموعهما فإن وجدت العادة مبنية على الحق حرصنا عليها وإن وجدت على غير المفروض وجب الرجوع عنها إلى ما هو مفروض "[1].

ويجب أن نقر بأن موقف الحبر إبراهيم الميموني كان حصينا للغاية في اعتراضه على هذه العادة، فنجح في الاعتماد على التوسفتا 'twsft وعلى ما جاء في " تثنية التوراة ". ففي التوسفتا : كيف كان الشيوخ يجلسون ؟ وجوههم إلى الناس وظهورهم إلى القدس ... والناس كافة يتجهون نحو القدس وفي " تثنية التوراة " كيف يجلس الشعب في الكنيس ؟ الشيوخ يجلسون ووجوههم للناس وظهورهم إلى الهيكل والناس كانوا يجلسون صفا أمامهم حتى تصبح وجوه الناس نحو القدس والشيوخ والتابوت ".

على أن هذا التشريع لم يتحقق. أما عن التوسفتا فلدينا أدلة قاطعة تثبت أن اليهود في العصر التلمودي لم يراعوا التنظيم الوارد فيها. كما كشفت التنقيبات التي أجريت عن الكنائس القديمة في فلسطين وفي بلدان أخرى أن المقاعد كانت تثبت فيها على طول الحيطان.

وأما تثنية التوراة فيؤكد إبراهيم الميموني مرارا أنه بنفسه تربى على هذه العادة التي يذمها. ويقول إن هذا كان فاشيا في كنيس أبيه. ومن هذا نعلم أن التشريع المذكور في تثنية التوراة لا يدل على العادة التي كانت سائدة في أيام أبيه. ولم يسع موسى الميموني إلا ليثبت التوسفتا المذكورة من قبل، وليجعل منها تشريعا، بيد أن هذا لم يتحقق في عصره كما لم يتحقق من ذي قبل. وهنا نخرج -اتفاقا- بنتيجة همة بالنسبة لبحث هذا المؤلف الكبير ودراسته وتلك هي أنه كان

---

(١) يصدق هنا أيضا ما قيل في الهامش السابق (الجرح).

من الشائع افتراض أن موسى الميموني " أثبت في كتبه العادات القاشية في أيامه في الشرق كقوانين " ولكن لا بد من مراجعة هذا الافتراض بسبب الظاهرة المعروضة أمامنا فينبغي أن نقول من الآن أننا لا نطلق القول إطلاقا بأن كل تشريع يحتاج إلى دراسة على حده كي نستطيع أن نبت فيما كان متفقا مع العادة القائمة فعلا أم لا.

(ب)

كانت جذور هذا الإصلاح أيضا ضاربة في البيئة الإسلامية. كما ادعى أنصار القديم المعاصرين لإبراهيم الميموني. وقد وقفنا من قبل على النظام الدقيق الذي تفرضه قوانين الصلاة الإسلامية على المصلي. والتي تحرم عليه أقل الحركات شأنا، فما بالك بتحويل الوجه عن القبلة - الأمر الذي يبطل الصلاة ويوجب إعادتها ؟ ومن اليسير علينا أن نتصور الصورة التي تركها النظام المضطرب في الكنيس في نفوس المسلمين، حيث كان المصلون يجلسون جلوس راحة، مستندين للحيطان، هذا يستقبل جهة الشرق وذاك يستقبل جهة الغرب. أحدهم يستقبل الشمال والآخر الجنوب. أضف إلى ذلك أن تحويل الوجه عن جهة الشرق يجر وراءه اضطرابات أخرى، وفيه - حسب رأي إبراهيم الميموني - إثم، إذ أنه يؤدي إلى فتور الهمة بل والنوم في الأسحار وفي أوقات النهار والاشتغال برؤية الداخل الخارج، والوقوف للآدميين وقت عبادته تعالى. وهو يشير إلى ذلك بقوله : " وقد رأيت بعيني - وليس بغريب - الحبر أو الشيخ يدخل والناس يتلون " تلاوة اسمع " فيقف الناس كلهم أو بعضهم يحيون ذلك الآتي وفي مثل هذا يشكي القائل " نضطجع في خزينا ويغطينا خجلنا[1] ". ولا ينطبق هذا التعب على ما ذكر "اعبدوا

---

(١) أرميا ٣ : ٢٥.

الرب بخوف[1] ". وإذا كانت هذه الفوضى المنتشرة في الكنائس الواقعة في بلاد النصارى قد جلبت العار على شعبنا حتى صار الأمر مضرب الأمثال، ومدعاة للتشنيع والهجاء ورمزا للضوضاء والاضطراب فما بالك به في البلدان الإسلامية ؟ ولكم نرى من الطريف ذلك التفسير الاشتقاقي الذي ذكره العرب للفظ "يهودي" حيث اشتقوه من مادة هـ د ا = اهتز تحرك[2] ووفقا لرأيهم سمى اليهود كذلك لأنهم يتحركون أثناء الصلاة وعلى الرغم من أن هذا التفسير الاشتقاقي بين الخطأ فإنه مفيد إلى حد كبير وهو يكفي لأن نقف على ما أحس به العرب من غرابة نحو صلاة اليهود وإذا كان سلوك النصارى المتأدب في كنائسهم قد صار قدوة للحسيدين الاشكنازيين، فمما لا ريب فيه أن النظام العنيف الذي ساد في المساجد الإسلامية كان أدعى للتأثير على الحسيدين الشرقيين.

وقد كان الخوف من أن يحول جمهور اليهود وجهه عن الشرق أثناء الصلاة وأن يؤدي ذلك إلى اضطراب في الصلاة من الأسباب التي كمنت وراء إصلاح

---

(١) مزامير ٣ : ١١.

(٢) مرجع باحثنا في هذه النقطة هو :
Goldziher: Beitrage zur Geschichte der Sprachgelehrsamkeit bei dem Arabern, I (1871),27.
ولعل من السهل أن نربط بين هذا المعنى الغريب لتلك المادة وبين معناها الشائع وهو "السكون" لأن السكون لا بد أن يعقب حركة، أو يحل محل حركة كانت متوقعة، وإذا قيل 'هذا الشئ قد سكن' فمعناها أنه كان مضطربا متحركا ثم اعتراه السكون، ولعل هذا يفهم من تقييد " تاج العروس " استعمال مادة هـ د ا حيث قال بعد تفسير القاموس المحيط هدأ بسكن: " يكون في الحركة والصوت وغيرهما " فضلا عن أننا نجد وزن فعل من نفس المادة يدل على الانحناء (هدئ = أكب وحدب وانحنى)، وإذا تكرر الانحناء فهو الاهتزاز، ومن مشتقات المادة أيضا " الهدأة ضرب من العدو " ولسنا لكل هذا نبرر صحة اشتقاق اليهود من مادة هـ د ا ، ولكننا نحاول فقط بيان إمكان دلالة هذه المادة على الاهتزاز (الجرح).

والد إبراهيم الميموني بإلغاء صلاة الهمس. على أن الابن كان أكثر فاعلية من أبيه، فبينما لم يهدف إصلاح الأب إلى أن يجعل ذلك الزيغ من غير الممكن في حال الوقوف، جاء إصلاح الابن ليمنع ذلك الزيغ في كل الحالات، وحتى في ساعة الجلوس.

ومما يجدر ذكره، أن الشاعر القبالي مناحيم دي لو نزانوا[1] انتقد عادة عدم التدقيق في استقبال القبلة، ولا شك أننا لا نبتعد عن الصواب إذا قررنا أنه أيضا تأثر بالأنظمة المثالية في المساجد الإسلامية. وقد ظهر ذلك في شعائر أخرى، فهو مثلا يضع العرب كانموذج لأبناء عصره لحرصهم على تطهير أرجلهم.

(ج)

بالإضافة إلى العوامل التي أحصيناها آنفا، والتي تقع داخل حدود السلبية، نشطت هنا أيضا عوامل إيجابية، صدرت عن غاية نسكية توجب استقبال القبلة في حد ذاته. فالعادة القديمة كما يقول إبراهيم الميموني - مذمومة والنقص ظاهر فيها لأن فيها عدم احتفال بعبادته تعالى، وليست صورة صادقة لما ورد في "المستقيمون يجلسون في حضرتك "[2]. وتتضح لنا جيدا هذه الكلمات - عندما نذكر أن الحبر إبراهيم الميموني قد رفع الجلوس إلى مرتبة الوضع التعبدي الذي أسماه "جلوس التعبد"- ولما كان الجلوس عبادة مثل الوقوف فمن ثم وجب استقبال القبلة فيه أيضا. فهذا الطلب متفق مع الطابع التعبدي للجلوس ونابع منه. والواقع أن هذه

---

(١) سبقت الإشارة إلى هذا الشاعر في ثالثا د (الجرح).

(٢) مزامير ١٤٠ : ١٣.

الآية : " فدخل الملك داود وجلس أمام الرب "[1]. هي التي يستند إليها هنا، وقد بنى عليها أيضا رأيه فيما يتعلق بالمعنى التعبدي للجلوس.

قارن ما قيل عن الحسيدين في المسألة التي استفتى إبراهيم الميموني ومحكمته :

" يتقلون على أنفسهم حتى جلوسهم كوقوفهم للصلاة "[2].

وهذا الفهم النسكي للجلوس هو الذي يتسم به قرار إبراهيم الميموني وإبراهيم الحسيد وهو يقضي بأن يصوبوا هم أنفسهم وجوههم ناحية الشرق، خلافا للنظام الموضح في التوسفتا وفي تثنية التوراة ولما تؤكده أيضا الحفائر الأثرية للكنائس القديمة وعلى النقيض كذلك من العادة المتفق عليها.

والواقع أن إبراهيم الميموني يبين أن الغاية من هذه الخطوة أن يصير "الشيوخ" قدوة للجمهور : " لأن في جلوس الشيوخ ووجوههم نحو القدس مصلحة كبرى لسائر الشعب، فيمكن أن يتشبهوا بهم ويفعلوا فعلهم. لذلك أرى أن يجلس الناس كافة شيوخا وغير شيوخ في حال العبادة أعني في حال التسبيح بأغاني داود والتعظيم وطلب الرحمة ببركات تلاوة اسمع وفي تلاوة اسمع أيضا، ووجوههم نحو القدس. وعلى ذلك اعتمدنا أنا والحبر إبراهيم الحسيد ومن تبعنا ".

وعلاوة على ذلك، يجوز لنا أن نفترض أنه قد نشط هنا أيضا عامل داخلي وهو تلك الغاية الحسيدية (النسكية) التي تنشد إضفاء طابع التعبد بكل تفاصيله على الجلوس - فقد أحس زعيما النسك بالحاجة الذاتية لرفع جلوسهم هم إلى درجة التعبد والجلوس أمام الله.

---

(١) صموئيل الثاني ٧ : ١٨.

(٢) سبق الحديث عن هذا الاستفتاء في خامسا هـ، فارجع إليه هناك إن شئت (الجرح).

وهذا التنازل عن الكرامة الخاصة اللائقة بهما - ولاسيما بالنسبة لإبراهيم الميموني الذي كان رئيسًا خلفًا لأبيه العظيم ومثله حقيق بتقدير خاص - كان فيه، في الوقت ذاته، احتجاج شديد على أحبار ذلك العصر، الذين مالوا إلى التكبّر والغطرسة والزهو بأنفسهم أثناء جلوسهم في الكنيس. حتى أفضى بهم الأمر كما يقص إبراهيم الميموني " إلى الجلوس على المراتب والاستناد للمساند وقد يكون ذلك في الهيكل نفسه في حال الصلاة وسماع التوراة " ومن الجهة الأخرى نستنتج أيضًا أنه حتى الزعماء الروحيين في ذلك الوقت كانوا قد طالبوا لأنفسهم بمثل هذا الاستعلاء. وهذا هو الحبر صمويل بن علي رئيس المدرس البابلية الذي عاصر موسى الميموني وكان من فرقته، يكتب إلى طائفة " أنه صواب أن يكرموا الحبر زكريا بن بركال التكريم اللائق برئيس المحكمة. وهو يذكر من بين وسائل التكريم ما يلي " وعليهم لدى دخوله الكنيسة أن يهللوا أمامه ثم يجلس على مقعد مستدير وفرش وثير مما يليق برؤساء المحاكم ومن خلفه الوسائد ".

(د)

أثار التعديل المعروض أمامنا أيضًا قومًا من المعترضين للإصلاحات الحسيدية لأنهم رأوا فيها - كما قلنا آنفًا - محاكاة للمسلمين (١) ويتقض إبراهيم الميموني دعاويهم - من جانبه - بإثباته أنهم هم الذين كانوا عرضة للتأثير الأجنبي: " فبينما هم يمتنعون عن الاستقبال في حال " جلوس التعبد " فإنهم يدفنون

(١) يحيل الباحث هنا إلى النص الذي اقتبسه من إبراهيم الميموني في متحقق : وجاء فيه "...المنع من استقبال القبلة في حالة الجلوس الذي بينا وجوبه ... لأنه هكذا يجلس الجوييم (الأجانب) في حال صلواتهم ..." (الجرح).

موتاهم في هذا الاتجاه بالذات. الأمر الذي هو من عادات الأمم وليس له أصل في التقاليد اليهودية[1] ".

ومن جانب آخر نستنتج من شهادة الحبر إبراهيم الميموني أن إصلاحه قد دوى دويًا كان له صداه بين معاصريه : " وعلى ذلك اعتمدنا أنا والحبر إبراهيم الحسيد ومن تبعنا " والرسالة التي تصف سلوكه بسلوك النساك تقول : " وعندما يجتمعون في مدارسهم يجلسون في فسوقى زامرا " ... في رهبة وخوف ويرى وجوههم جميعًا نحو القدس .. ويثقلون على أنفسهم حتى يكون جلوسهم كوقوفهم للصلاة.

وقد رأينا الحسيد الشرقي، الحبر سليمان بن يشوعا من قبل يتابع حبرنا في السجود، وجلوس البروك، كما يلفت نظر قرائه إلى هذا الإصلاح الذي نحن بصدده.

(هـ)

ولنحاول الآن أن نرى : ما الفرق بين الحسيدين من اليهود في البلدان الإسلامية وبين إخوانهم في بلاد النصارى ؟ أن النساك الاشكنازيين التابعين لمدرسة الحبر يهوذا الحسيد لم يروا في جلوس الجمهور في الاتجاهات الأربعة ما يخدش شعورهم الديني بل ولم يروا في ذلك ما يجعله إثمًا أو مذمومًا، وإنما برروا هذا وأوجدوا له رمزًا في الآية الأولى من " اسمع " إذ أنه من غير المعقول في

---

(١) انظر : Wensinek, .., Lane : Manners and Customs Ahandbook ص١٢٥، حيث نجد : اعتاد المسلمون استقبال القبلة أيضًا في أعمال دينية أخرى كما في حال رمي الحجر في زمان الحج وفي وقت الذبح والمسلمون يدفنون موتاهم ورأسهم قبالة مكة مدينتهم المقدسة ويفعل القراءون هذا أيضًا وبحسب أقوالهم يتجهون بذلك ناحية أورشليم.

نظرهم أن الله يقول : كيف ينظر عبدي إلى الغرب بينما أنا في الشرق ؟ إنما هـــو في كل الجهات ويعلم في ساعة واحدة بما في جميع القلوب ويسمع في مرة واحـــدة صلاة هذا وصلاة ذلك، على حين أن صلاة الأول تختلف عن صلاة الأخـــير ومـــا يطلبه أحدهما يباين مطلب الآخر[1].

ترى هل كانت هذه الآراء موجهة نحو نساك الشرق الذين رأوا أن الجلـــوس نحو بقية الجهات ليس جلوسا أمام الله ؟؟

---

(١) انظر المؤلف العبري عن الحسيدين Sfr hsydym طبعة برلين.

ثامناً : الاصطفاف

(أ)

شمل الإصلاح الحسيدي كافة أوضاع العبادة، ولاسيما الوقوف – أي صورة وقوف الجمهور في صلاة الجمعة. وهذا الإصلاح الذي نعرض له ذو أهمية خاصة لأن فيه تجديدًا منسوبًا إلى المشنا. فبالإضافة إلى أن ذلك أيضًا محاكاة للعادات الإسلامية، فإن الميموني في محاولته إرساء إصلاحه هذا على أسس يهودية قد أظهر مدى تأثير اللغة العربية نفسها عليه.

وانتقاد الميموني وذمه لعادة عصره من الوقوف في وقت الصلاة دون نظام، موجودان في ذلك الفصل الذي نشره أفنشتين من " كفاية العابدين " وها هي كلماته كما ترجمها العالم المذكور إلى العبرية :

" ..... لأنهم كانوا يسببون اضطرابًا في صورة وقوفهم، الذي كان خلوا من النظام، فكان هذا يدخل والآخر يخرج. وذلك يناقض ما كان عليه وقوف بني إسرائيل في سالف العصر وما قيل في المشنا " يقفون مصفوفين " – وهو النظام الصحيح، وما خالفه فهو عادة فاسدة يجب ردها إلى الصورة المستقيمة "[1].

والكلمات التي استشهدنا بها هنا لا تكفي لأن نقف على طبيعة الوقوف الذي يطلبه حبرنا، لأن معنى كلمة "صفوفيم" التي في المشنا لم تتضح لنا تمامًا بعد، ولعل معناها يختلف عن المعنى المألوف، فلنتبين الأمر فيما يلي : " وإذا وصل إلى نهاية البركة الأخيرة يقف الناس كافة وهو، أعني الإمام، متوسط في الصدر قبالة بيت المقدس أو جهة أورشليم كلها، أمام الصف الأول، والناس جميعهم صفوف كما

---

(١) انظر كتاب اليوبيل Sfr hywbl لإسرائيل ليفي ص٤٧ (نص عبري).

كانت العادة في الهيكل " عومديم صفوفيم " (واقفين مصفوفين) ولا يدخل أحد ولا يخرج، كما يقفون في هذه الأزمنة كيفما اتفق "[1].

فلنقل – إذًا – صورة الوقوف الجديدة هي أن ينتظم الناس في صفوف وقت الصلاة. وبالتأكيد للمسجد هنا تأثير على الكنيس. غير أنه في هذه الحال أيضًا يظهر إبراهيم الميموني وكأنه يعيد عرفًا يهوديًا قديمًا إلى تطبيقه الأول – ذلك هو عرف بيت المقدس الذي يستند إلى قول المشنا : " عومديم صفوفيم " ومما لا ريب فيه أنه يفسر الكلمة الأخيرة بمعنى صفوف كما تدل كلمة صف في العربية وجمعها صفوف.

(ب)

ونحن نرى – من ناحيتنا – أن هذا المعنى يشتمل على تجديد مدهش، فيبدو أنه كان في نظر إبراهيم الميموني هو المعنى التلقائي والوحيد، لأنه لو لم يكن الأمر كذلك، لما استند ببساطة إلى هذه الفقرة من المشنا مرارًا، دون أن يشعر بالحاجة إلى إضافة شئ من شأنه أن يفسر العبارة التي نحن بصددها والتي اعتمد عليها.

وفي الواقع عندما ندقق النظر في كلمات أبيه موسى الميموني في شرحه على " الآباء[2]". نرى أنه فسر النص أيضًا على هذا النحو فقال " ويقفون في فناء المعبد كل واحد بجانب صاحبه ".

وهذا المعنى موجود في تفسير الحبر يونان حيروندي معاصر إبراهيم الميموني في الأندلس : كانوا يقفون في فناء المعبد صفوفًا كل واحد بجانب الآخر

---

(١) المرجع السابق

(٢) مخطوط اكسفورد رقم ٣٨٠.

(صفوفيم) ويسجدون في يسر بحيث لا يضايق أحدهم رفيقه، وهكذا كان هذا التفسير شائعا ! وهذا يوجب علينا أن نتساءل : ما هي حقيقة دلالة هذه الكلمة ؟ أمن المحتمل أن يكون معناها قد غاب عنا ؟ عندما ننعم النظر نرى أن مادة sff وحيدة في المشنا وقد تعب الشراح الإسرائيليون في العصور الوسطى في اشتقاقها. أليس من الممكن جدا أن تفتح لنا اللغة العربية ثغرة ننفذ منها للمعنى الحقيقي لهذه المادة – إننا إذا ما قبلنا هذا التفسير نكون قد كسبنا شيئين هامين :

- تنجلي لنا عادة إسرائيلية قديمة كانت قد خفيت عنا حتى الآن.
- ونكون قد كشفنا عن المصدر الذي تأثر به المسلمون الذين يصطفون في صلاتهم[1].

ولكن يبدو أن هذا التفسير متناف مع الحقيقية، يسير النقض للغاية، وعلينا أن نلقاه بقدر من الشك كبير. فالمادة التي بصددها موجودة في مصادر أخرى والمعنى الوحيد الذي يتفق وما يرمي إليه الكلام فيها جميعا هو : " ضغط، عقد، ضايق " بالإضافة إلى ذلك فليس في متناول أيدينا أسانيد من مصدر آخر، تؤيد أنهم وقفوا في الهيكل صفوفا. وما أعجب هذا، فهل من الممكن أن لا يحتفظ لنا الأدب التلمودي الغزير أو المصادر الأخرى بأي ذكر لتلك العادة الهامة، سوى هذه المشنا التي بين أيدينا، وهي تذكرها في معرض الحديث عن شئ آخر ؟

لهذا كله نرى من الأولى أن لا تخرج كلمة " صفوفيم " عن معنى مضغوطين وهو المعنى الموجود من قبل في " آباء الحبر ناتان "[2] أما التفسير الذي فسره المتكلمون بالعربية من اليهود فأساسه، كما قلنا، تأثير هذه اللغة عليهم، وأنهم في

---

(١) وفقا لرأي بروكلمان في ٣١٥ كانت هذه العادة متفشية في الكنيسة السريانية.

(٢) طبعة شختر ص١٠٦.

الواقع قد التبس عليهم الأمر، إذ أن المادة العربية المقابلة لـــ sff هـذه ليست (صف) بل ضف بمعنى " ضغط. ضيّق "[1].

(ج)

لقد كان هذا الإصلاح الذي نحن بصدده من بين إصلاحات إبراهيم الميموني التي عارضها المحافظون .. ويخبرنا إبراهيم الميموني بذلك صراحة : " وهؤلاء الذين يسمون في عصرنا علماء منعوا اتباع هذه العادة على الرغم من شاهد قول المشنا " لأنه هكذا تقف الأمم في حال صلاتهم ".

ولم يحز الاصطفاف – كما سبق أن ألمعنا – قبولاً بين حسيدي فلسطين، والقطعة التي تحتوي على المدخل إلى سدور أرض إسرائيل تذكر هذا التشريع : "ولا يقفون صفوفًا، بل يقف كل واحد منفردًا ".

ولا يعترض الناسك الفلسطيني على هذه العادة لأنها من عادات الأمم، ولا يختلف مع الذين يقولون بأن هذه العادة كانت موجودة بين الإسرائيليين سابقًا. بل كان ما في الأمر أنه يعارض إحياءها في هذا العصر، ومن الطريف تعليله بقوله: أنه يرى صورة هذا الوقوف طقسًا بهيجًا لا يناسب المحزونين والمغضبين، فهؤلاء في حاجة لأن يقف كل واحد منهم منفردًا – الأمر الذي يندرج تحت ما ورد : "ويجلس وحده ويسكت"[2]. وعلينا أن ندرك أن الوقوف صفوفًا كان له في الحقيقة، طابع الاحتفال البهيج، وذلك من عادة القرائين في دمشق الذين كرموا كتاب التوراة

---

(١) يقال:ضف القوم على الشئ ضفا:اجتمعوا وازدحموا –وضف الشئ ضفا:جمعه..الخ (الجرح).

(٢) جاء هذا النص في مراثي أرمياء ٣ : ٢٨ والسياق الذي أخذت منه هذه الفقرة هو : " جيد أن ينتظر الإنسان ويتوقع بسكوت خلاص الرب*جيد للرجل أن يحمل النير في صباه* يجلس وحده ويسكت، لأنه قد وضع عليه*يجعل في التراب فمه لعله يوجد رجاء"(الجرح).

عند إخراجه وإدخاله بالوقوف صفوفا من حواليه : " ويجب عند خروجه يقفوا الجماعة حواليه صفوفا صفوفا ويكونوا مائلين رؤوسهم إلى أسفل نحوه، عبادة لله تعالى وإكراما لشريعته "[1].

وأساس هذا الاحتفال مشابهة كتاب التوراة للملك كما نصوا على ذلك بقولهم: " لأن التوراة شبيهة بالملك[2] ".

(١) ورد هذه النص بالعربية المكتوبة بحروف عبرية، وقد عربنا كتابته دون تصرف (الجرح).

(٢) انظر J.Q.R. المجلد الخامس ص٥١٦.

تاسعاً : بسط اليدين

(أ)

من العادات العتيقة التي أعدها الإصلاح الحسيدي إلى الكنيس أيضًا : بسط اليدين في وقت الصلاة.

فمن المعروف أن هذه العادة، المشتركة بين كافة الشعوب المتحضرة قديمها وحديثها، كانت شائعة أيضًا في إسرائيل وما أكثر الآيات التي تدل على ذلك[1]. ونستنتج من المصادر الخارجية مثل اجاتر خيدس اليوناني وفيلون ويوسفوس أنها كانت شائعة أيضًا في زمن الهيكل الثاني، ولكن بعد تدمير الهيكل، وفي عصر التنائيم والأمورائيم، أهملت هذه العادة تمامًا. ويدلل أبو الكنيسة طرطوليان صراحة أن اليهود لا يجترأون على بسط أيديهم في الصلاة لأنها ملطخة بدم المسيح، ونحن في الحقيقة لا نرى لهذا ذكرًا في الآداب التلمودية الغزيرة[2].

والواجب يقتضي أن نتريث ونتساءل : ما الذي دعا إلى هذا التغيير ؟ ما هي الأسباب التي دفعت اليهود إلى ترك عادة طبيعية بالنسبة لمن يصلي، عادة اتبعها سيد الأنبياء داود ومن بعده سليمان ؟

تمكننا المصادر النصرانية من جلاء غوامض هذه الظاهرة، وتعيننا أن نجيب بأن هذه الأسباب وفدت من الخارج. وهنا نجد أنفسنا في فصل من فصول قضية صراع اليهودية مع النصرانية وذود الأولى عن نفسها. فالعدول عن هذه العادة – كترك الركوع والسجود – هو أحد نتائج ذلك الصراع.

---

(١) انظر مثلاً خروج ٩ : ٣٩، ٣٣ – ملوك أول ٨ : ٢٣ ، ٣٨ ، ٥٤ – اشعيا ١ : ١٥ عزرا ٩ : ٥ ... الخ.

(٢) قارن : F. Heiler : Das Gebet. P. 101

فعندما أخذ النصارى القدامى في إخضاع هذه العادة للفكرة الأساسية لعقيدتهم وعندما دنسوها بأن جعلوا منها رمزًا لصلب مسيحهم، رأى أحبار إسرائيل أنفسهم مضطرين، إزاء ذلك، أن ينفضوا أيديهم منها وأن يخرجوها تمامًا من نطاق اليهودية. فيقول طرطوليان[1] : نحن النصارى - بخلاف اليهود - لا نرفع أيدينا فقط، بل ننظمها على شكل صليب الرب، وهكذا نقر في صلاتنا بالمسيح.

وقد سبقت نفس الفكرة - أي الرمز بوضع اليدين إلى الصليب - طرطوليان، فقد أوجد برنبا[2]. رمزًا للصليب في التوارة في يدي موسى المرتفعة في حرب العماليق. وكرر يوسطينوس[3] ذلك - ومن الطريف أنه في القرن الثالث عشر اجترأ ريموند مرطيني على أن يقر وجود هذه الفكرة في التلمود الاورشليمي.

ومن جراء التدنيس الذي لحق بعادة بسط اليدين أبعدت تماما من العادات اليهودية وحين عاد يهود القرائين فقط إلى هذه العادة لم يكن ذلك إلى لاعتراضهم على اليهودية الربانية ولرغبتهم في الاقتراب من العادات الإسلامية.

(ب)

وقد رد النساك الذين يتبعون مدرسة إبراهيم الميموني - نتيجة لرغبتهم في تجديد صور الصلاة، ونتيجة لابتغاء وسائل جديدة للتغيير - إلى تلك العادة سابق مجدها وخصصوا لها مكانا في نظام صلواتهم. وبناء على رأي حبرنا فإن " بسط اليدين محمود ومستحب في مواضع الطلب والاسترحام في الصلاة ... لأنه هكذا رأينا الأنبياء في أدعيتهم كما يطلب السائل ممن يتصدق عليه ".

---

(١) انظر : Ep. Barnabas. XIII

(٢) انظر : Dialogue

(٣) انظر : Pugio Fiedei, p 581

وقرر مثل ذلك الناسك الفلسطيني أيضا : " يجثو على ركبتيه ويداه مبسوطتان نحو السماء ووجهه مرفوع " ، وكذلك صاحب فصول في النجاح : "ويتجه المصلي إلى الله تعالى واقفا على رجليه منشرح القلب واللسان مبسوط اليدين .. الخ "[1].

ونحن نميل إلى أن نرى في هذا الإصلاح أيضا تأثير البيئة الأجنبية. وربما يتضح لنا على ضوء ذلك، لماذا أخصص حبرنا بسط اليدين للطلب فقط دون ما عداه من مواقف التسبيح والشكر، على الرغم من أنه ليس لهذا التفريق أصل في الكتاب المقدس[2]! ولكن هكذا يسلك المسلمون، فهم لا يبسطون أيديهم في وقت الصلاة التي هي تسبيح، بل في وقت الدعاء الذي يكون في ختامها[3].

[تم بحمد الله]

---

(١) انظر بالعبرية I'yl ص٤٦ و٥٩.

(٢) قارن مثلا : مزامير ٦٣ : ٤ ، ١٣٤ : ٢ نحميا ٨ : ٦

(٣) وفي (تكبيرة الاحرام) التي تسبق الصلاة نفسها - انظر :Goldziher Noeldeke-Fesschrift ص ٣٢٥ وما بعدها.

الفهرس

تصدير.	٣
المقدمة.	٩
أولا : غسل الرجلين	١٣
ثانيا : اغتسال المجانب.	٣١
ثالثا : إلغاء صلاة السر.	٣٤
رابعا : إصلاحات الحسيدين (الناسكين) في الصلاة.	٣٨
خامسا : السجود.	٥٨
سادسا : جلسة البارك.	٧٦
سابعا : استقبال القبلة أثناء الجلوس.	٨٠
ثامنا : الاصطفاف.	٨٩
تاسعا : بسط اليدين.	٩٤

هذا الكتاب يعتبر الأول في سلسلة جديدة من إصدارات المركز هي سلسلة: **"فضل الإسلام على اليهود واليهودية"**.

إن صدور هذه السلسلة الجديدة يتواكب مع المرحلة الجديدة من تاريخ الصراع في الشرق الأوسط. ويهدف المركز الى توعية الإسرائيليين والمجتمع الإسرائيلي واليهودي عمومًا بفضل العرب على اليهود عبر العصور، وبفضل الإسلام والحضارة الإسلامية على اليهود منذ ظهور الإسلام وحتى الآن.

أن مناخ السلام سيعطي للإسرائيليين ولليهود خارج إسرائيل الفرصة للتعمق في طبيعة العلاقات العربية اليهودية. و ماضي هذه العلاقات، وطبيعتها في ظل تسامح الدولة العربية الإسلامية، وكيف اندمج اليهود في المجتمع المسلم وتأثروا بالحضارة الإسلامية في ظل حكم عربي إسلامي احترم أهل الكتاب ووفر لهم الحماية الشرعية والأمن الديني والاجتماعي والرفاهية الاقتصادية والمكانة الإنسانية اللائقة.

ويعتبر هذا الكتاب المترجم من اللغة العبرية هو إحدى العلامات المضيئة على طريق بيان فضل الإسلام على اليهودية وذلك باعتراف مؤلف الكتاب الباحث اليهودي نفتالى فيدر الذي يقول: " إن الديانة اليهودية تأثرت تأثراً عظيمًا بالبيئة الإسلامية فقد أدت التيارات الروحية التي غمرت هذه البيئة طوال مئات من السنين إلى ثورة في الحياة الروحية لليهود المقيمين في الأصقاع العربية....